المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

آن سبنسر

أغنية البحر

أساطير وحكايات وفلكلور

1537

ترجمة: عزت عامر



البحار قوية وجميلة وواهبة للحياة وقاضية على الحياة. من الشواطئ الجليدية فى القطب الشمالى إلى الجزر المشمسة العادية، ألهمت المياه العظيمة للعالم من يعيشون عليها؛ لكى يحكوا القصص عن البحر.

هناك القرصان الهمجى بلاكبيرد، بلحيته المتوهجة وأعماله الشريرة، الذى واجهته نهاية دموية، والمرأة الفقمة المسحورة، جزء منها بشر وجزء فقمة، التى أحبت حياتها البشرية، لكنها اشتاقت إلى العودة إلى وطنها تحت الماء. سيلا وشاريبديس عديمتا الرحمة تحكمان المضيق الغادر فى الأزمنة القديمة، وتعطيان البحارة سيئى الحظ اختيارًا شنيعًا بين طريقتين للموت. وسِيدنا، ربة بحر القطب الشمالى الوحشية والكريمة، تصبح الرازقة المحسنة بالطعام من البحر.

قصص عن القراصنة وحوريات البحر، والوحوش، والأرباب، والشعر، والأقوال، وأناشيد البحارة، والخرافات من كل أنحاء العالم، تتجمع فى "أغنية البحر"، كتاب جذاب لا يُنسى مثل البحر نفسه.

لوحة وتصميم الغلاف: عبد العزيز السماحى

أغنية البحر

أساطير وحكايات وفلكلور

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1537
- أغنية البحر .
- آن سنبسر
- عزت عامر
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Song of the Sea

By Ann Spencer

Illustrations by Mark Lang

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

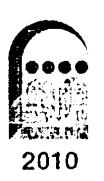
E.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

أغنية البحر
أساطير وحكايات وفلكلور

تأليف : آن سبنسر

ترجمة : عزت عامر



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سبنسر: آن.
أغنية البحر: أساطير وحكايات وفلكلور/تأليف: آن سبنسر؛
ترجمة: عزت عامر .
ط ١ . القاهرة: المركز القومى للترجمة؛ ٢٠١٠ .
٢٣٦ص ؛ ٢٠ سم .
١ - الأدب الشعبى.
أ - عامر، عزت (مترجم)
ب - العنوان
٣٩٨,١

رقم الإيداع / ٢٠١٠/٤٢٠٣
الترقيم الدولى I.S.BN.978-977-479-891-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولاتعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

إهـــداء

إلى جدتى، جينى ماسون، مع الذكريات الرائعة لليالى لونينبورج الضبابية التى قضيناها حول مائدة مطبخ نانى، تدفئنا لفائفها المخبوزة الطازجة وتغذى خيالنا حكاياتها عن الأسلاف، وحطام السفن، والحياة على طول شواطئ البحر.

آن سبنسر

شكر

أود أن أشكر لين مارى رتشارد فى المتحف البحرى للأطلنطى، ولى هيلد ولورا بيريرا فى الجمعية التاريخية لدارتموث القديمة - متحف صيد الحيتان الجديد فى بيدفورد للإجابة عن كل أسئلتى عن الأمور البحرية. ومحيطات من الشكر لمحررتى سوى تات، لاجتهادها وحماستها.

آن سبنسر

مقدمة المترجم

تحتل المحيطات ٧٥ فى المائة من سطح الأرض وتحتوى على ٩٦ فى المائة من مياهه، وتقوم بدور منظم حرارة عملاق لكوكب الأرض، لذلك فدورها المؤثر على الطقس العالمى بالغ الأهمية، وكذلك دورها على الخيال الشعبى منذ أزمنة قديمة. وإذا كان العلم الحديث قد بدأ يكشف أسرارها، من تياراتها ومدها وجزرها حتى أعماقها السحيقة التى تحتوى على كنوز معادن المستقبل، فإن تاريخها فى التراث البشرى يعج بالأساطير والخرافات.

فى تلك العصور القديمة لم تكن البحار والمحيطات قد عرفت بعد السفن البخارية والحديثة، وكانت مياهاً بريئة من السفن العملاقة والتلوثات الناجمة عن ناقلات النفط والغواصات النووية وحاملات الطائرات ودفن النفايات النووية فى أعماق المحيط الهندى، هذا العنف الأكثر رعباً من الكائنات الخرافية القديمة.

كانت المحيطات والبحار قديماً ملهِمة بالشعر والسحر وأطياف الصبايا وحوريات الماء، وتحولت فى نفس الوقت إلى مأوى لكائنات عملاقة شريرة وطيبة وجنيات وأشباح الغرقى والمفقودين والقراصنة.

وها هو كتاب يقدم عرضاً لهذه العوالم الخفية يطمح إلى إلقاء نظرة شاملة على كافة عوالم البحار الواقعى منها والخيالى، مستعرضاً أهم الخرافات الشعبية القديمة التى تدور حول الموت والحياة فى البحر، والشهادات عن رؤية كائنات بحرية غريبة، حتى رصد الحياة اليومية للقراصنة ومأثوراتهم ومواثيقهم.

إنه البحر بكل ألغازه وجبروته تستكشفه تصورات الإنسان وخيالاته وأنشطته البحرية من الصيد حتى القرصنة. ولطالما واجهت هذه البحار الإنسان، منذ عصر السفن الشراعية، بأمواج مضطربة وعواصف عاتية، وهو يبحر بحثًا عن الصيد أو التجارة أو الحرب أو حتى استكشاف أرض مجهولة. إنسان يتأمل البحر حيث يعيش على سواحله وموانيه ويحدق فيه ضائعًا بين الأمواج المتلاطمة باحثًا عن شىء طاف بين حطام تتقاذفه اضطرابات فى المياه وفى السماء، لعله يحمله إلى مأوى برى آمن.

هكذا كان البحر ولا يزال يمثل للإنسان ألغازًا لا تنتهى، مصدر تهديد من الظواهر البحرية الطبيعية مثل ظاهرة النينو المدمرة، ومصدر حياة ورزق وفير، مكان للعمل والبهجة، وقد يكون فى النهاية قبر الإنسان ونهاية مصيره.

عزت عامر

لعلك تأتى إلى البيت بحجر مستدير ناعم

صغير مثل العالم وكبير مثل الوحدة.

لأنه أياً كان من نفقده (مثل أنت أو أنا)

فإننا نجد أنفسنا دائماً فى البحر

من «ماجى وميلي ومولى وماي»

تأليف: إ. إ. كامينجس E. E. Cummings

١

أصوات قديمة: إطلاق صوت المحار

إطلاق صوت المحار

يصعد تريتون من المحيط

فى مركبته الحربية تشدها أفراس الأمواج البيضاء المفعمة بالحيوية.

تمتطى قمم الأمواج،

تعدو حوافرها ليصبح البحر زبداً رغوياً.

ابن بوسيدون، رب المحيط،

ارفع بوقك الصدفة.

أطلق صوت المحار واعزف

أقدم أغنية للبحر.

يقال، إنه يغنى: هكذا بدأ البحر:

ذات مرة كان هناك صندوق، فيه كل مياه الأرض

ساكنة داخله بإحكام

حتى فتحت الأيدى الفضولية الغطاء

وانفجر البحر خارجاً، سكب أخطبوط هائل حبره وكان هو البحر.

تصور الأرباب العظام البحر فأصبح موجوداً.

صوت بوق منخفض بطيء امتزج بالأمواج المتكسرة التى تخفق متتالية،

أول أغنية يغنيها البحر،

محمولة فوق الأمواج، تردد الصدى وتنبض بتناغم

أينما وجدت نغماتها شاطئًا.

أطلق صوت المحار، يا تريتون،

حتى يعرف كل من يسمعه

أغنية المحيط العظيم

بوداعة وهدهدة، بصرامة وصخب.

غارقة دائماً فى الألغاز.

أغنية أزلية أبدية.

امرأة السلمون.

عذراء الممر المخادع

قناة ضيقة، تتصف بالتيارات سريعة التدفق وبالتيارات التى تدور بسرعة، كانت هى الممر الوحيد إلى البحر بالنسبة لقبيلة ساميش التى تعيش فى موازاة الساحل الغربى لكندا. وبالنسبة لشعب يعتمد على البحر فى متطلباته الغذائية الأساسية من السلمون والمحار، فإن الإبحار فى مثل هذه المياه الخطيرة كان جزءًا ضروريًا من الحياة اليومية. لكن منذ زمن بعيد وقعت أحداث غامضة على موازاة هذا الشاطئ الغربى أتاحت لقبيلة ساميش حاميا ومرشدا خلال هذا الممر.

منذ ذلك الوقت، ظهرت عذراء بحر فى أزمنه المحنة، ارتفعت إلى السطح خلال المياه الدوامية السريعة لترفع قوارب الكانو[١] بعيدًا عن جاذبية المد وعن التيارات التى

(١) الكانو Canoe: زورق طويل ضيق يقاد باستعمال مجداف أو أكثر - المترجم.

تهددها بسحبها إلى فوهة الدوامة المائية. سماها البعض امرأة السلمون، لكن الكثيرين يعرفونها باسم عذراء الممر المخادع، حيث يوجد هذا الامتداد المحفوف بالمخاطر من الماء البحرى. جاءت سيدة البحر من هذه القبيلة وتعتبر قصتها إحدى القصص العظيمة عن التضحية.

بعد ظهر أحد الأيام فى الصيف، تقابلت مجموعة من صبايا ساميش عند الشاطئ. كان المد منخفضًا ومناسبًا للحفر بحثًا عن البطلينوس[٢]. تحدثن وضحكن بلطف وهن يملأن سلالهن. كانت امرأة شابة تنظر إلى المياه. كانت ذات طبيعة وديعة وكانت أفكارها تدور حول مدى جمال البحر. وصديقة لها، كانت تلاحظ أن الصبية جمعت القليل من البطلينوس، رمت بمحارة بطلينوس فى اتجاهها. طارت المحارة على رأس الفتاة، واستقرت أسفلها تمامًا فى الماء. والشابة، التى جفلت وخرجت فجأة من حلم يقظتها الهادئ خاضت فى الماء بحثًا عن محارة البطلينوس. كانت هناك على القاع الصخرى، ووصلت إليها. كانت تشعر بها فى يديها، لكن عندما رفعتها خارج الماء انطلقت من جديد فى الهواء، واستقرت فى مكان أبعد فى البحر. خاضت الفتاة حتى صار الماء فوق ركبتيها فحسب وانحنت للإمساك بالمحارة. ومرة أخرى انزلقت المحارة مبتعدة من قبضتها.

---

(٢) البطلينوس Lam : حلزون صدفى، محار: أى من أنواع الرخويات ذوات الصدف سواء البحرية أو الموجودة فى المياه العذبة، بعضها قابل للأكل – المترجم.

استمر هذا الأمر الغريب حتى وجدة الفتاة نفسها فى الماء الذى وصل الآن إلى خصرها . ومحتفظة برأسها فوق سطح الماء، غطست بجسمها كله مباشرة إلى أسفل فى البحر وجعلت تلمس القاع بيديها . لم تعثر على المحارة بين كل الحصى والأحجار.

ويد بكاملها قبضت على يدها فجأة. تنفست بصعوبة وحاولت تحرير يدها ، ولكن دون طائل. أصيبت الفتاة بصدمة شديدة حتى إنها لم تجد القوة لتصرخ. وفى ذلك السكون، صوت ما بدا يطفو إلى أعلى خلال الماء. "أيتها السيدة الوديعة"، قال الصوت، بنغمة تشبه الأمواج ذات الطيات، "أتوسل إليك ألا تفزعى، لأننى أرغب فقط فى النظر إلى هذا الجمال الأرضى العظيم".

عندئذ، تخلت القوة عن يدها وامتلأت أذناها بصوت الأمواج الملتفة التى تطلق الرشرشات، والضحكات البعيدة لصديقاتها على الشاطئ. وأصابت الحيرة الفتاة من أن يكون قد استولى عليها حلم يقظة آخر. وعلى الشاطئ مع الأخريات، لم تتحدث عمّا حدث لها.

مرة أخرى، فى اليوم التالى، قابلت الفتاة الصبايا وذهبن ليحفرن بحثًا عن البطلينوس. وفى هذه المرة، عندما نظرت بعيداً إلى البحر رأت ضوءاً راقصاً يومض على المياه. "كم هو جميل وميضه هذا"، فكرت وهى تسير تجاهه. كان يبدو أنه قريب جداً ، لكن عندما وصلت لتضع يدها خلال كرة الضوء المتلألئ، بدت كما لو كانت قد قفزت بعيداً عنها بمسافة قصيرة. وكما حدث لها مع محارة البطلينوس، خاضت الفتاة أبعد فأبعد حتى وجدت نفسها تقف من جديد فى مياه تصل إلى خصرها . وفى هذه

المرة، عندما غطست يدها فى الماء لتمسك بالتوهج المبهر، جذبتها اليد مرة أخرى.

لم تشعر الفتاة بأى ذعر. هدهدها الصوت بهمسات البحر اللطيفة، يحكى لها قصصًا عن العالم الهادئ المتلألئ تحت المياه. تكلم عن الأشياء الفخمة الكثيرة التى تملأ مملكة المحيط، أشياء فخمة لا يمكن لأى إنسان أن يتخيلها. وحتى الفتاة، بكل أحلام يقظتها المفعمة بالحيوية عن البحر الجميل، لم يكن فى استطاعتها تخيل مثل هذا الجمال. "تعالى مرة أخرى"، هكذا هسهس الصوت الذى يجلب الراحة، عندما حررت اليد يديها. ومن جديد، توجهت إلى صديقاتها، ولم تخبر أى منهن بالأحداث السحرية.

يومًا بعد يوم، سُحبت الفتاة بشكل غامض إلى المياه بواسطة قوة بحرية ما. صوت أو موجة أو شىء طاف يكون فقط قريبا منها. وفى كل مرة، يتم جذبها بيد ويُقال لها المزيد من الأسرار حول الأعماق. ولمدد أطول كل يوم، سيطرت عليها أحلام اليقظة هذه عن البحر.

ثم فى صباح ما، خاطرت الفتاة بالذهاب إلى الشاطئ بمفردها. وفى تلك المرة عندما خاضت فى الماء وأمسكت اليد بيدها، بدأت المياه ترتعد حولها فى كل مكان. وصعد رجل شاب خارج البحر المضطرب. "أريد أن أتزوجك" قال، "لأنك وديعة وجميلة، وأنت فقط التى يمكنك فهم طرق المعيشة فى عالمى".

"لكن أبى لن يسمح بحدوث شىء مثل ذلك" قالت الفتاة محذرة، وهى تدرك خيبتها تجاه هذه الحقيقة. وظل رجل البحر مصراً، وذهب الاثنان معاً إلى القرية لمقابلة أبيها. كما توقعت، وجدا أمامهما رفضاً قاطعاً. أخبر رجل البحر الأب بكل ما قاله للصبية. صوَّر الجمال الرائع لعالمه بكلمات استدعت دموع الفتاة. لكن هذه الكلمات لم يكن لها تأثير على الأب وظل قراره دون تغيير.

عندئذ، أطلق رجل البحر تحذيراً حازماً. تكلم مع الأب بصوت يشبه موجة متلاطمة: "أحذرك، أيها الرجل المسن. إذا لم تغير موقفك، سوف يعانى أهلك بشدة، فإننى كما أعرف جمال البحر، أعرف ألغازه الشريرة. إذا لم تكترث لكلماتى، سوف أجعل مخلوقات البحر كلها بعيدة عن متناول أيديكم. سوف تعانى قريتك من الجوع". وبعد ذلك رحل.

فى البداية، تمت ملاحظة تغيرات بسيطة. عادت الفتاة وصديقاتها إلى البيت بسلال نصف فارغة بعد قضاء يوم كامل على الشاطئ. بدأت الجداول الصغيرة تجف ولم يعد فيها أى سلمون. ولا حتى المحار يمكن العثور عليه. وفى الأماكن التى كانت ممتلئة بالأسماك، لم يكن من الممكن رؤية سمكة واحدة.

ومع الندرة جاء المرض والموت. كانت الفتاة تعرف أن عليها إنقاذ قريتها. جرت إلى الشاطئ وغمرت نفسها فى نفس المكان الذى ظهر رجل البحر فيه. وبعد أن وصل الماء إلى خصرها، صاحت، "أتوسل إليك، يا رجل البحر الطيب، أعد الطعام إلى أهلى، لأن الكثيرين يموتون".

"لا" جاء الصوت، وهو ينطلق مثل البحر الغاضب نفسه. "على أبيك أن يجعلنا نتزوج. عندئذ فقط سيكون هناك طعام". لم تكن الفتاة خائفة من عدم شفقته، لكنها سارت ببطء إلى الشاطئ لأنها عرفت أن كلمة رجل البحر كانت نهائية. كان هناك عمل واحد فقط يمكن القيام به. يجب عليها أن تقنع أبيها بأن يدعها تذهب من أجل أهلها.

أخيراً، عندما وصل الأمر إلى أن جداول الماء العذب جفت بسبب الجفاف الشديد فى ذلك الصيف، وافق أبوها لأنه لم يكن هناك خيار آخر. عدم سماحه لابنته بالزواج من رجل البحر يعنى الموت من الجوع لكل شخص من أهله. أمسك بيد ابنته وسارا معًا إلى الشاطئ وخاضا فى الماء المالح للتحدث مع رجل البحر. عندما ظهر على السطح، تكلم الأب. تدفقت الدموع من عينى الأب وهو يعطى إذنه: "موافق، سوف تتزوج من ابنتى. ولكن ألتمس منك طلبًا واحداً تضمنه لى. اسمح لنا بمتعة رؤيتها مرة كل عام. علىَّ أن أطمئن إلى أنه يتم معاملتها بشكل جيد تحت البحر وأنها سعيدة حقًا. عندئذ فقط يمكننى أن أدعها تذهب وأنا مطمئن لذلك".

عاد الأب إلى قريته ليجد ابتهاجًا وراحة كبيرين. تدفقت المياه وفاضت فى كل الجداول، وثبت أسماك السلمون وظهر محار البطلينوس بكثرة. كل الأمور أصبحت طيبة بالنسبة لأهله. فكر الرجل فى تضحية ابنته العظيمة وتوجع قلبه.

بعد نهاية عام واحد، ذهب إلى الشاطئ وجلس ينظر إلى المكان فى البحر حيث كان قد رأى ابنته آخر مرة. شعر بالقلق من أن زوجها قد لا يسمح لها بالعودة إلى الأرض، ولكن هناك، فى الماء، رأى شيئا ما يطفو. فى البداية ظن أنه لم يكن سوى عشب بحرى ضخم، لكنه تذكر شعر ابنته الأسود اللامع. اضطرب البحر وظهرت ابنته والماء يصل إلى خصرها. سارت إلى أبيها ومعًا ذهبا إلى القرية.

قُوبلت بتحيات كثيرة. وسأل الجميع عمّا إذا كانت سعيدة وحكت لهم حكايات عن البيت البحرى لزوجها. وفى ليلة ما، لاحظها أبوها وهى تنظر عند مدخل البيت إلى المحيط. بدت كما لو أنها تنصت بإمعان إلى شىء لا تستطيع أذنيه سماعه. تركها بمفردها مع عالمها. فى الصباح التالى سارت عائدة إلى الشاطئ. وبصعوبة استمعت إلى توديعه لها لأنها خاضت بسرعة فى المياه واختفت مرة أخرى تحت السطح.

لثلاث سنوات أخرى عادت إلى القرية. ابتهج أهلها، لأن زياراتها كانت تتسم بالحظ السعيد فى صيدهم. لكن أبوها لاحظ تغيرات كبيرة فى ابنته مع مرور كل عام. بينما كانت فى البداية تنظر إلى البحر فقط كل مساء، أصبحت الآن توجه نظرها دائمًا نحو الماء. أصبحت ضجرة ومشتتة عندما يحاول الناس التحدث معها. كانت كما لو أن جزءًا كبيرًا من نفسها مفقود.

وكان مظهرها يتغير أيضًا. منذ وقت مبكر، كانت إحدى صديقاتها قد لاحظت أن شعرها يصدر عنه وهج مخضر، فى أضواء معينة، وكل

جلدها يبدو أخضر مزرق. ظنت صديقاتها أن ذلك يعود إلى ضوء آخر الصيف، لكن فى الزيارة الثالثة لم يكن هناك شك فى أنها تتغير بالفعل. عندما أمسك أبوها بيديها، أصابه الرعب لمدى خشونتهما. رفعهما ليقبلهما وحاول ألا ينقطع نفسه وهو يلهث صائحًا أمام مشهد الحيوانات البحرية القشرية تنمو على نتوءات مفاصل الأصابع وعلى المعصمين. ولمحت صديقة نفس الانتشار لهذه القشريات على قدميها العاريتين. مع نهاية الزيارة، رأى كثيرون القشريات وقد نمت على ذراعيها وساقيها.

فى الصيف الرابع، غطت الحيوانات البحرية القشرية وجهها من أحد الجانبين، من ذقنها حتى صدغها. ونمت الأعشاب البحرية بشكل هائج فى شعرها الأسود اللامع وكانت النسائم الباردة تتبعها هنا وهناك فى سيرها خلال القرية، وحتى وهى داخل البيت. وكل ما يخصها كان يتسم بالحزن والتشوق. كانت تنظر فى الخارج إلى البحر بعينيها المغطاتين بالقشور، وكان الجميع يعرفون أنها تتوق إلى العودة.

أدرك أبوها أن البحر أصبح بيتها الحقيقى. نظر للمرة الأخيرة إلى ابنته، عذراء البحر، ثم باركها لتعود إلى الماء. "لست فى حاجة إلى استمرار العودة إلى الأرض"، قال، "إلا إذا رغبت فى ذلك". بكت دموعًا مالحة وهرولت إلى الشاطئ. وشقت طريقها مطلقة رشرشات مرة واحدة ثم اختفت.

رغم أن الفتاة لم تعد تأتى إلى الأرض، لم تنس أبدًا حبها لأهلها. امرأة السلمون، عذراء الممر المخادع، كان فى استطاعتها دائمًا أن تقوم بدور الحامية لهم. اهتمت بالمفقودين والمعرضين للخطر فى القنال.

وأرشدتهم. وفرت لهم جداول مليئة بالسلمون وبحاراً مثقلة بالمحار. كانت دائمًا معهم، تحرسهم وترشدهم. لم يكن لشعب ساميش سوى النظر فقط إلى البحر، حيث يطفو شعرها الأسود اللامع المخضر على سطح الماء، لكى يعرفوا أنهم سيكونون دائمًا تحت حماية عذراء البحر الجميلة المنتمية إليهم. وحتى فى أكثر التيارات سرعة أو فى مياه المد المندفعة، يعرفون أن امرأة السلمون سوف تظهر، وهى تخوض فى القنال لترشدهم آمنين إلى الشاطئ.

تضرعات إلى المياه الهادئة

يا روح المحيط

اجعلى الأمواج هادئة من أجلى

اقتربى منى، يا قوَّتى

قلبى مرهق

اجعلى البحر يشبه اللبن من أجلى

ييهو

ييهولو.

تضرعات هايدا Haida التراثية

تيين هوِى،

ربة البحَّار

فى جزيرة ميى – شوى Mei-chou الصغيرة، القريبة تمامًا من شاطئ الصين، لا تزال تحكى قصة غامضة عن فتاة شابة أصبحت ربة البحَّار. القوارب والسفن الشراعية الصينية المسافرة فى البحار حول جزيرتها تحمل باستمرار تقريبًا صورتها على متنها. ويطلب البحارة، والتجار، والركاب كلهم من تيين هوِى Tien-Hou الحماية المقدسة.

لم تكن تيين هوى دائمًا ربة. بدأت حياتها بشكل طبيعى كفتاة تعيش على جزيرة مع والديها وإخوتها الأربعة الأكبر سنًا. وكانت العائلة تعتمد فى حياتها على البحر. وبينما يكون أبوها وإخوتها فى البحر للصيد، تبقى تيين هوى على الجزيرة مع أمها. كانتا تعملان مع النسوة الأخريات، ينسجن السلال ويجمعن قواقع الشاطئ، ثم يبعن مصنوعاتهن للحصول على الأقمشة المصبوغة والأوعية الفخارية.

لم تكن تيين هوى تهتم بالنسيج، لأنها بينما تكون يداها مشغولتين بالأنماط العادية، يكون عقلها مشغولاً بجولات حرة. كانت تحدق بشغف عبر البحار الفيروزية الزرقاء وراء الرمال البيضاء، وكم رغبت فى الخروج إلى المياه مثل رجال عائلتها. لكن رغباتها كانت مختلطة بمخاوف حول أمن أبيها وإخوتها فى البحر عندما لا يستطيعون السباحة.

فى يوم دافئ ومشمس، كانت تيين هوى جالسة مع أمها على الشاطئ تحت شجرة نخيل تلقى ظلاً. ومن وقت لآخر كانت الفتاة تنظر شذرًا فوق الماء إلى الأفق، آملة أن يصبح قارب الرجال فى مجال النظر. كانت تيين هوى منذ عدة ساعات تنسج سلالها وأحلام يقظتها شاردة الذهن على الإيقاعات النعسانة للأمواج المتلاطمة. وفجأة، شعرت وكأن رأسها على وشك الانفجار. ارتجف جسمها، ثم تصلب، وتراجعت عيناها فى رأسها. ومتصلبة وهى تتنفس بصعوبة سقطت تيين هوى على الرمال.

شعرت أمها بانزعاج شديد. هزت الفتاة لتعيد لها الانتباه، ثم احتضنت الجسد الصغير المحموم بين ذراعيها بحنان وعناية. لم يكن هناك تشنجات، لكن تنفس تيين هوى كان خشنًا ومتزعزعًا. صاحت أمهما وجاءت النساء الأخريات بسرعة للمساعدة فى حمل تيين هوى والعودة بها إلى كوخ عائلتها. وهناك مددوها على حصيرة خيزران. وطوال ما بعد ذلك الظهر الطويل، كانت الأم الحنونة تغمس الملابس فى الماء البارد وتضعها على جبين تيين هوى. لم تنته الحمى وبدت الفتاة غائبة عن العالم.

عندئذ بكت الأم وناشدت ابنتها أن تتخلص من قبضة الغيبوبة. مراراً وتكراراً، كانت تهمس لتيين هوى، "استيقظى، استيقظى، يا تيين هوى. إنها أمك التى تنادى. هل تسمعيننى؟ استيقظى الآن، يا حبيبتى".

بدأت تيين هوى ترتجف وهى تنصت للحب والقلق فى صوت أمها. فتحت عينيها وحدقت فى أمها. "لو أننى بقيت مدة أطول، كان علىَّ أن أبقى دقيقة أخرى فحسب" تلك كانت الكلمات التى خرجت من بين شفتيها الجافتين. وكانت الدموع تتدفق من عينيها.

كانت أم تيين هوى بالغة السعادة بعودة ابنتها إلى الحياة حتى إنها لم تفكر كثيراً فى هذه الكلمات الغريبة، متأكدة من أنها كانت مجرد غمغمات بسبب الحمى ليس لها معنى. لكن فى ذلك المساء عندما عاد قارب زوجها إلى الجزيرة، أدركت بشكل واضح تماماً أهمية ما كانت تقوله تيين هوى. لقد حدث أمر يتعذر تفسيره هناك فى البحر فى ذلك اليوم. لقد هبت عاصفة قاسية وهزت قارب الصيد الصغير بعنف فى المياه مثل دوامة. وجرفت موجة عملاقة الأب والإخوة من فوق القارب. ظن كل منهم أنه غارق عندما رأى تيين هوى تقترب من المياه. كانت تبدو طائرة وهى تهبط من السماء وترفعهم، واحد فى كل مرة، من البحر الهائج فى أمان إلى سطح القارب. لكن فى الوقت المناسب تماماً عندما صاح الأخ الرابع طالباً المساعدة، اختفت تيين هوى فى الهواء الضبابى. صاح الأخ الذى يغرق عدة مرات من بين الأمواج العنيفة، ثم لم يصدر عنه صوت بعد ذلك. عندما هدأ البحر، أجرى الأب والإخوة بحثاً يائساً للمرة الأخيرة، ثم توجهوا فى تردد إلى الشاطئ.

نهضت تيين هوى من فوق حصيرتها وتكلمت بوضوح وهدوء مع عائلتها قائلة: "هذا هو سبب أننى لم أكن راغبة فى أن يتم إيقاظى. لم يكن عملى قد اكتمل ورغبت فى البقاء لإنقاذ أخى. لكن الألم فى صوتك والحب فى قلبك أعادانى إليك يا أمى". إعادة ابن واحد للحياة كانت تكلفته حياة ابن آخر، وأصبحت العائلة مرتبكة وتشعر بأسى عميق لوقت طويل.

تم نسيان حالة تيين هوى الغريبة عدة أشهر. وعزمت الأم على نسيان كل ما حدث تمامًا حتى كان يوم ما، عندما أصيبت تيين هوى مرة أخرى بحالة إغماء مع الحمى. ورغم توجع قلبها، أدركت الأم أنه لا يجب عليها أن توقظ ابنتها.

فى تلك المرة سقطت تيين هوى فى غيبوبة عميقة. ولعدة سنوات ظل جسدها ساكنًا واهتمت به أمها ونساء القرية. وأولئك اللائى كن يغسلنها ويراعينها لاحظن أنها لم تكن على ما يبدو فى جسدها على أى حال.

وكانت التعزية الوحيدة لأمها وأقاربها أن قوارب الصيد التى ترسو على الجزيرة كانت تحمل قصصًا عن معجزات: كيف حلقت فتاة شابة جميلة هابطة من السماء مثل طائرة لإنقاذ المعرضين للخطر. انتزعت الكثيرين من البحار الثائرة، وحملت القوارب المحطمة بأمان مع بعضها البعض حتى أوصلتها إلى الشاطئ، وجرفت سفن القراصنة بعيدًا عن أهدافها المريبة.

ولسنوات طويلة تمت العناية بالجسد الصغير على حصيرة الخيزران حتى جاء وقت توقفت كل الحياة عن التدفق فى تيين هوى. ولكن حتى مع موتها، استمرت عمليات الإنقاذ الخارقة للفتاة الطائرة الشجاعة. وعبر كل مياه الشاطئ، لا يزال الناس يرونها. وأصبحوا يشيرون إلى تيين هوى، ربة البحًار، باحترام كبير باعتبارها الملكة الحامية للبحر. وحيث إنها ظهرت آتية من السماء، أطلقوا عليها أيضًا اسم إمبراطورة السماء.

وكان البحارة يضعون تذكارات فى أوعية على الجانب الأيسر من المقدمة على السفن الشراعية والقوارب المبحرة فى تلك البحار. وكعرفان بجميلها لمساعدتها لهم وإرشادهم، كانوا يركعون أمام تماثيل تيين هوى وصورها. وأحرقوا البخور صباحًا ومساءً تمجيداً لها، وكانوا يعلقون أكياسا حمراء مليئة بالرماد العطرى حول السفينة الشراعية. وعندما تهب العاصفة يستغيثون بها لتجعلهم يمرون بأمان.

صورة تيين هوى لفتاة عنقها ممتد مثل عنق طائر ويدها على شكل كوب حول أذنها لتسمع الأصوات البعيدة للمحن، أو تحمى عينها لتحدق بعيداً فوق المياه باحثة عن المعرضين للخطر. ويُعتقد بأنها ترى وتسمع كل شىء بـ "عينها الألف ميل" و"أذنها المنتبهة المبشرة بالنجاة". يقول البعض إنه لا يزال من الممكن رؤية تيين هوى طافية عبر السماء فوق الغيوم، حيث تحمى كل أولئك الذين يبحرون فى المياه بالقرب من شاطئ الصين.

سِيدنا، سيدة البحر العظيمة

فى زمن قديم فى الشمال البعيد، "بالعودة بالزمن الغامض للأسلاف والأرواح، كانت تعيش عذراء جميلة ذات جدائل تسمى سِيدنا. كانت تعيش مع أبيها بجانب المحيط القطبى الشمالى القاسى المتجمد فى خيمة مصنوعة من جلود الحيوانات. كان لسِيدنا جمال غير مألوف جعلها رائعة أكثر بطبيعتها الروحية. كانت رشيقة الحركة، ولديها شعور بالفخر، وحرة بشكل جامح. وظن أبوها أن ابنته ذات نزوات ومغرورة، لأنه رغم وصول شباب من الشمال راغبين فى التودد إليها، رفضتهم سِيدنا جميعًا.

كانت أكثر أفراح سِيدنا تأتيها من سيرها الطويل على خط الساحل الخشن، وكانت تجلس على صخرة كبيرة وتحدق بعيداً فى البحر. ثبتت عينيها على الأشعة المتوهجة للشمس، وهى تتحرك بسرعة وتهتز على قطع الجليد الطافية هناك. كانت رقصة الألوان تأسر القلب حتى تحطم منشور الجليد بنصل مجذاف يتموج فى الماء. نظرت سيدنا لترى غريباً

يجلس فى كياك[٣]، يشق طريقه نحو الشاطئ. وبدا أكثر وسامة وكان يرتدى كنزة صوفية فخمة لها قبعة من فراء غزال الرنة بزخرفة من جلد حيوان الشَّره[٤] كان يحمل رمحًا من العاج، يتوهج فى ضوء الشمس.

عندما استدارت لتلقى عليه نظرة أوضح، انتبهت سِيدنا لصوت الطيور. بدت الأصوات تتهادى رقيقة فى البداية لكن فجأة ضج الهواء بصيحاتها الحادة. دارت الطيور حولها، وفوقها تمامًا، حتى شعرت بالدوار وبالإغماء. ثم، فى النعيق العالى الملحاح، برز صوت طائر واحد من بين بقية الأصوات. ورغم أنها لم تكن متأكدة تمامًا بوقت حدوث ذلك، أدركت سِيدنا فى لحظة ما من هذا العصر الدافئ أنها استطاعت فهم معنى صوت الطائر. بدا الأمر كما لو أنها كانت تسمع كلمات منطوقة بالفعل، أو ربما كلمات تغنى. ثم نظرت إلى الغريب الغامض فى الكياك. كان ندائه هو الذى ينطلق خلال الصرخات. تَغنى بنشيد غزل، ملئ بالعهود:

تعالى معى يا سِيدنا.

سوف نبحر بعيدًا إلى بلاد رائعة

وطن رخاء لا يخطر على أعز أحلامك.

---

(٣) الكَياك kayak : زورق طويل خفيف ضيق مقاوم للماء يتألف من هيكل خشبى خفيف مغطى كليًا بالجلود ما عدا فتحة أو اثنتين فى الوسط مسير بمجذاف ذى راحتين - المترجم.

(٤) الشره wolverine : حيوان ثديى لاحم مقيم فى الجحور من المناطق الغابية فى شمالى أمريكا - المترجم.

هناك ستعيشين فى أجمل الخيام

وتستريحين فى هدوء فى مخدع دافئ مغطى بجلد الدب.

طيور مغنية ستعزف لك مديحًا لتنامى

وتوقظك مع ضوء النهار.

سوف يظل مصباحك ممتلئا دائمًا.

تعالى معى، يا سيِدنا.

نعم كان هذا هو المتودد الذى طالما انتظرته وشعرت سِيدنا بأنها منجذبة للذهاب معه. ملأتها أغنيته براحة عجيبة، كما لو أنها كانت فى حلم سعيد. ولا حتى اللسعة الباردة للريح التى تزداد حدتها يمكن أن تعيدها إلى أحاسيسها. سارت سِيدنا حتى حافة الشاطئ وصعدت إلى الكياك.

عندما عاد أبوها من صيد النهار، بحث عن ابنته. وبعيداً على المياه، حيث يتقابل البحر مع السماء، رأى شخصين فى الكياك. ووراؤهما كانت أسراب من طيور النوء(٥) تتبعهما. ظن أنه يسمع صيحاتها، لكن الصوت كان يشبه أكثر ضحكًا ساخرًا.

رحلت سِيدنا والرجل، لعدة أيام وليالى، عبر بحار لا تعرفها. بالنسبة إليها، كان عالمًا غريبًا يشبه الحلم من ريح تعوى باستمرار، وأمواج

(٥) طائر النوء petrel : طائر بحرى أسود اللون أو رمادى أو أبيض - المترجم.

متلاطمة ترش المياه، وصيحات لكثير من الطيور. ومن وقت لآخر، فى تلك الأصوات، كانت سِيدنا تظن أنها تسمع صوت الغريب. عندئذ أشار ورأت سِيدنا أرضا أمامهما. عندما وصلا إلى الشاطئ، أرشد الرجل سِيدنا إلى بيتها الجديد وأصبحًا زوجا وزوجة.

بمجرد أن أصبحت داخل الخيمة، رأت سِيدنا جلود دب فاخرة، تمامًا كما وُصفت. ولأنها كانت مرهقة، فإنها نامت فوراً على ما يبدو أنه سرير مصنوع من جلد دب.

كان زوجها يستيقظ مبكرًا كل صباح للصيد، ويعود بكل ما يحتاجان إليه. بالنسبة لسِيدنا، كان كل يوم رائع مندمج فى اليوم التالى، حتى شعرت أنها عاشت باستمرار هناك.

لكن فى أرض الشمال البعيد "بالعودة بالزمن"كان من الممكن الانخداع بسهولة بالعالم المرئى. لم يكن من الغريب بالنسبة للأرواح القوية أن تخلق أوهامًا تبدو حقيقية تمامًا.

ذات صباح استيقظت سِيدنا ورأت نظارات الوقاية من الجليد التى يرتديها زوجها دائمًا موجودة فى مدخل الخيمة. ولأنها ظنت أنه قد يحتاج إليها فى صيد النهار، ارتدت ملابسها وجرت للعثور عليه.

وبينما كانت تشق طريقها حول صخرة ضخمة، رأت سيدنا زوجها هناك فى الأعالى. وبمجرد أن أوشكت على ندائه، توقف مكانه، ورفع رأسه إلى الخلف، ومد ذراعيه إلى جانبه. ما حدث بعد ذلك أخاف سِيدنا. هناك أمام عينيها بالضبط، كان زوجها يغير هيئته – بسحر

تغيير الأشكال، وسمعت نداء هذا السحر. أصبح ذراعاه جناحين كبيرين، وملابسه من جلد غزال الرنة أصبحت ريشًا، وحذاؤه من جلد الرنة أصبح قدمين نحيلين بشعر متشابك. وفي رعبها وهي ترغب في الهرب، ركلت بعض الحصى. لف زوجها رأسه، وبينما كانت سِيدنا تتخذ مخبأ خلف الصخرة، ألقت نظرة خاطفة على وجهه. كان ملتويًا ومتنافرًا. كانت عيناه الخرزيتان تحدقان في اتجاهها. وعندما تأكد من عدم وجود أي شيء، حلق بعيدًا وطار فوق الماء. تحطم الوهم أخيرًا وعرفت سِيدنا أن زوجها كان في الواقع غير آدمي: روح طائر على هيئة فلمار(٦) قوي.

انطلقت عائدة إلى بيتها لتكتشف في النهاية المزيد من الخداع. لم تكن هناك خيمة جميلة، مجرد حافة جرف صخرية مغطاة بالريش وبجلود الأسماك الملوثة التي تم نقرها. وبعد أن زال كل السحر، أصاب الاضطراب سِيدنا. واجهت البحر الواسع، وهي تبكي وتصيح في أسى وغضب. حمل النسيم نحيبها نحو الشاطئ، حيث كان أبوها يعيش حينئذ وحيدًا.

فكر الأب في ابنته بحزن شديد، حيث ذكَّرته الرياح الدافئة القادمة بأن عامًا كاملًا قد مر منذ رحلت ابنته. وبينما كان ينظر بعيدًا إلى البحر، سمع صرير الجليد وطقطقته. كان نواحًا بطريقة لم يسمعها من قبل. جاء الصوت كما لو أنه صوت امرأة. ظن أنه وهم وكان على وشك العودة من الشاطئ عندما أدرك نداء ابنته: "أبي، أبي، ساعدني".

(٦) فُلْمار fulmar : طائر بحري من طيور القطب الشمالي - المترجم.

ملأ الأب قاربه الكياك بالمؤن من أجل الرحلة وانطلق فى البحر، ولم يكن هناك ما يرشده سوى صيحات ابنته. بعد عدة أيام وجدها، بائسة ووحيدة على الشاطئ المهجور. أمسكت سِيدنا بإحكام بأبيها وتوسلت إليه أن يعديها إلى البيت. كان زوجها الطائر قد غادر فى النهار واستطاعا إنجاز هرب سريع. وافق الأب على أن ذلك كان الخطة الوحيدة، ورغم أنه كان منهكًا انطلقا فى البحر الواسع فى رحلتهما إلى البيت.

كانت الأمور طيبة فى البداية وبدا أنهما كانا قد غادرا الشاطئ دون أن يلاحظهما أحد، سوى سرب صغير من طيور النوء التى كانت تطير عاليًا فوقهما. وبعد مرور عدة دقائق، انفجرت صيحات طيور النوء من بعيد. سمع الزوج الطائر نداء التحذير وطار إلى البيت ليجد أن زوجته قد هربت. مرتجفًا ومتذمرًا، حوّل نفسه من جديد إلى جسم بشرى ودخل فى الكياك. مدفوعًا بقوة غضبه الشديد، بدأ الكياك بسرعة فى متابعة قارب سِيدنا. وكان السرب يطير فى الأعالى بشكل غريب.

وقف الزوج الطائر فى الكياك، وهو يصيح مطالبًا بعودة زوجته إلى بيته. تجاهله والد سِيدنا وجذف بسرعة أكبر. صرخ الرجل الطائر بكلمات الانتقام التى تحولت إلى تذمرات وصرخات ذعر. أصيب والد سِيدنا بالذعر من هذا الصوت، لكنه تجرأ ونظر خلفه. بينما كان هناك رجل قبل ذلك، كان هناك الآن فلمار عملاق واقف. أمسك والد سِيدنا بإحكام بتعويذة الدب القطبى وبتميمة منقار النسر المعلقة فى حزامه. ولم تستطع حتى ذيول الثعلب وجلود الحيوانات المثبتة فى مقدمة قاربه أن تُبعد بالسحر رعب هذا الموقف.

مع كل ضربة من جناحى الفلمار القويين، بدأت الريح تتبع قارب الكياك الذى لطمته الأمواج. ارتفعا إلى ارتفاعات مخيفة وأظلمت السماء عندما طار الفلمار العملاق فوقهما. صرخاته، وانقضاضاته، واندفاعاته وسط البحار العاصفة دفعت والد سِيدنا إلى الركوع فى رعب.

عرف الأب أنه لن يستطيع أن يصمد أمام روح الطائر القوى هذه. كان من الواضح بالنسبة إليه أنه إذا لم يضح بسِيدنا لتهدئة البحر الهائج، سوف يضيع هو أيضاً. سيطرت عليه طبيعته الجبانة وفى قبضة رعبه، رمى الأب بابنته فى المياه الثلجية. ظن أن الغطسة سوف تكون نهايتها، لكن سِيدنا كانت قوية وثابتة العزم. عادت إلى السطح وأمسكت بإحكام بجانب الكياك. حاول أبوها بقوة رفع أصابعها، لكنها ظلت قابضة بإحكام. كان قد فقد عقله وتناول أقرب شىء إليه لفك قبضة ابنته ودفعها إلى القاع.

هشم يديها ببلطة ووقعت أطراف أصابع سِيدنا فى البحر. وفجأة تحولت إلى أسماك. حاولت سِيدنا أن تتماسك. وبضربة أخرى من البلطة انفصلت أصابعها من عند المفصل الثانى. وعندما لمست الماء، أصبحت عجول بحر. وظلت متشبثة بالقارب وأطلق الأب ضربته الأخيرة. وانفصلت بدايات أصابعها وتحولت إلى حيوانات الفظ(٧). انزلقت سِيدنا من الكياك وغرقت فى الأعماق الثلجية.

---

(٧) فظ Walrus: حيوان ثديى بحرى ضخم يعيش فى المناطق القطبية ذو صلة بالفقمة له نابان طويلان وجلد غليظ متغضن وأربع زعانف - المترجم.

لكن تلك لم تكن نهاية سِيدنا. بسبب تضحيتها والوحوش البحرية التى وُلدت من معاناتها، حصلت على قوى خارقة. تحولت سيدنا من صبية أرض إلى ربة بحر. أصبحت امرأة البحر العظيمة.

تحكم سيدنا من مملكتها فى المحيط فى قاع المحيط القطبى الشمالى. وكأم لوحوش البحر، هى ربة خيرة ورازقة عظيمة للناس على الأرض عندما يتم اتباع قوانينها. إذا حدث أن تم انتهاك أحد محرماتها، يكون مقابله بالمثل وحشى وفورى. تدفع سيدنا العواصف على البحر وتسبب المجاعة بأن تجعل كل الحيتان والدببة القطبية غير مرئية للصيادين، وبأن تخفى عجول البحر فى حوضها البارز تحت قنديلها فى بيتها فى قاع البحر.

فقط الأنجاكوك angakok، وهو شامان أو رجل يعالج بالسحر لديه معرفة بألغاز الروح العظيمة، هو الذى يمكنه القضاء على المرض، والمجاعة، والبؤس. فى غشية مستبصرة يمكنه الهبوط إلى المملكة المائية ليسترضى سِيدنا الغاضبة. ورحلته رحلة روحية تتسم بالخطر عندما يعبر الجليد القاسى وأرواح ما تحت الماء التى تجذب الغرقى. وهناك سخان يغلى وكلب أسود شرير يحرسان منطقة حكم سيدنا.

هناك تجلس ربة البحر، تشوه وجهها من الحزن، والمعاناة، والغيظ المروع الذى تشعر به تجاه الناس.

تجمع عقوقهم وانتهاكهم لحرماتها فى شعر سِيدنا مثل الدهن، فجعله يتشابك. وبدون أصابعها لا يمكنها تنظيف أو تضفير شعرها الطويل. يحل الشامان بهدوء كل العقد، ويمشط لإخراج السخام، ويجدل شعرها الطويل الأسود. ويدعك يديها المتألمتين ويعد ربة البحر بأن شعبه سيحترم قوانينها وسوف يكون منتبهًا لقدسية الحياة. وتعد سيدنا بتحرير الوحوش والسماح لها بالسعى إلى الصيادين. وبعد استعادة النظام، يعود الشامان فى رحلته إلى عالم البشر ليذكرهم بأن سخاء المحيط يجب الأخذ منه باحترام، وامتنان وحكمة.

بوسيدون

فى أعماق المياه الزرقاء فى بحر إيجة عاش بوسيدون، رب البحر العظيم فى اليونان القديمة. حكم من قصره تحت البحر المصنوع من اللؤلؤ والمرجان، ترافقه حاشيته البحرية. وبينما يكون جالسًا على عرش من الصدف، يستمع بوسيدون ويقيّم الأمور فى العالم فوقه. وعندما تحتاج تلك الشئون الأرضية مراقبة أقرب، يرفع بوسيدون وجماعة من حاشيته الكهوف البلورية الموجودة فى المملكة ويجهزون جياد المركبات البيضاء فى إسطبلاتها تحت الماء. يصدر تريتون أصواتًا من المحار، يعلن الصعود الملكى إلى السطح. يركب بوسيدون الأمواج فى مركبة زرقاء وذهبية، مثل البحر والشمس، تسحبها الفحول المائة البيضاء للأمواج المتلاطمة المتلألئة الخاصة به. ودائمًا يوجد فى جانبه دلافين، وغيلان، وكل أنواع مخلوقات البحر.

يمسك الحاكم الأعلى للأمواج والعالم المائى تحتها برمح قوى ثلاثى الشعب، يمكن لحوافه الثلاث أن تهدئ أكثر الوحوش البحرية ضخامة، وأن تحطم صخور الشاطئ، وتثير البحار. عندما كان بوسيدون راضيًا كانت البحار ساكنة. لكن لكونه ذو طبع جامح ومزاج متقلب بطبيعته، قد يرفع رب البحر غالبًا رمحه الثلاثى ويزأر بصوته الرعدى حتى تضرب

الأمواج العملاقة الشواطئ وتكتسح الفيضانات الأرض. وعندما يكون منزعجًا بشكل مروع، يدفع بوسيدون الزلازل التى تنطلق من قاع البحر، ويرسل وحوش البحر الشرسة لمهاجمة السفن.

يرتعد البحر والشاطئ من عقاب رب البحر. ولتهدئة رب بحرهم العنيد، قدم الملاحون اليونانيون القدامى هبات ضخمة ونفيسة. كانوا يضحون بثيران سوداء وبيضاء وكان بعض البحارة يرمون خواتم ذهبية فى المحيط، وهم يغنون قصائد خاصة للفوز بدعم فى مواجهة المياه. كان ذلك ثمنًا لهدوء البحار.

٢

شكاوى وحشية: البحر وكل ما يتعلق به

مشاهدات وحش البحر

أفعى بحر بالغة الضخامة بطول ٢٠٠ قدم وبقطر ٢٠ قدما تعيش بين الصخور والفجوات بالقرب من شاطئ بيرجين Bergen، وتخرج من كهفها الكبير فى ليالى الصيف فقط وفى الطقس الصافى للقضاء على العجول، أو الحملان، أو الخنازير البرية، أو تتسلل فى البحر لأكل أسماك الحبار، وسرطان البحر، وكل أنواع القشريات. كان لها شعر نام يصل طوله إلى قدمين معلق على رقبتها، وتدرجات حادة باللون البنى الداكن، وعينان متوهجتان متألقتان.

أولاوس مجنوس Olaus Magnus (١٤٩٠ – ١٥٥٧)

كان وحش "البحر" ذو حجم بالغ الضخامة حتى إنه عندما يخرج من الماء يصل ارتفاع رأسه إلى ارتفاع صارى السفينة، وكان جسمه بضخامة سفينة، وأطول منها ثلاث أو أربع مرات. كان له خطم طويل حاد، منبثق مثل سمكة الحوت، ومخالب كبيرة عريضة، ويبدو الجسم مغطى بقواقع، وهو جسم خشن تماماً وغير متسق. وكان الجزء السفلى منه متشكل مثل أفعى كبيرة هائلة، وعندما يغطس من جديد تحت الماء، فإنه يغوص إلى الخلف فى

البحر ومن ثم يرفع ذيله عاليًا، فيما يبدو كما لو كان طول سفينة كاملة بعيد عن الجزء الأكثر ضخامة من الجسم.

حكاية المبشر الدنماركى هانس إجيد Hans Egede

عن وحش بحرى تمت رؤيته فى جرينلاند فى ١٧٣٤

يمكننى أن أحلف أن عينى الوحش جعلتنى أشعر كأنى أحترق.. ثم تذكرت خصوصًا لزوجة مروعة بقوة هرقلية خلفهما.. وكان هناك شيء ما يجلد ساعدى الأيسر وخلف رقبتى مما جعلهما يلتويان معًا.. وفى نفس اللحظة، صفعنى شيء آخر بقوة على جبهتى من أعلى.. وبدأ فم يحك فى حنجرتى.. وشعرت بالفم الذى يمص كحلقات ساخنة تسحب جلدى.

حكاية عن هجمة لأخطبوط عملاق قدمها أرثر جريمبل Arther Grimble، فى الرجل الذي هرب.

وحش هائل ظهر فجأة على مستوى ظهور السفن وكان يمثل مظهرًا مخيفًا.. بدا مغطى بقواقع بحرية ضخمة وكان له رأس ضخم مليء بالشعر. وكان من الممكن رؤية رأسه من مسافة بعيدة من أحد جانبى السفية بينما يظل ذيله مرئيًا على بعد ياردات كثيرة فى الجانب الآخر. وتم تقدير طوله بستين قدمًا.

تقرير رؤية في جنوب إفريقيا،

كتبه أحد أفراد طاقم السفينة تشرشل

يونس والحوت

والآن كان الرب قد أعد سمكة ضخمة لابتلاع يونس، وظل يونس فى بطن السمكة ثلاثة أيام وثلاث ليالى.

كتاب يونس، ١ : ١٧

فى زمن بعيد بالقرب من بحر الجليل، كان يعيش رجل اسمه يونس. ذات يوم سمع صوت الرب يتحدث إليه قائلاً. "يونس" قال الرب، "الناس فى مدينة نينوى العظيمة نسوا طيبتهم. حولتهم طرقهم الأنانية إلى الشر".

لم يفهم يونس سبب أن الرب يحدثه عن شعب نينوى لأنها كانت مدينة بعيدة جداً عن الجليل، ولم يكن يونس يهتم بما يحدث هناك. لكن الصوت استمر، وفى تلك المرة أعطى ليونس تعليمات: "أطلب منك أن تحمل رسالة من أجلى، يا يونس. قل لأهل نينوى إنهم إذا لم يغيروا سلوكياتهم، سوف يعيشون بالتأكيد أزمنة عصيبة وسوف يتسببون فى عقابات تقع عليهم. اذهب إلى نينوى الآن، يا يونس، لأنه سوف تحدث لهم متاعب كثيرة فى أربعين يوماً إذا استمروا فى العيش بهذه الدرجة من الأنانية. ساعدهم بكلماتك".

"نعم، يا رب، سوف أفعل ما تأمر به" قال يونس.

وعندئذ، اختفى الصوت.

كان يونس منزعجًا من هذا الطلب غير العادى. كيف له، وهو الأجنبى، أن يذهب إلى العاصمة الآشورية ويملى على أهلها كيف يجب عليهم أن يعيشوا حياتهم؟ بالتأكيد سوف يظنونه مجنونًا. شعر يونس بالغضب كلما فكر فى ذلك الأمر. " لن أصنع شيئًا تكون له أهمية، لأنهم لن ينصتوا لى. وكيف أساعد فى تغيير هذا المصير القاسى البائس؟ لا أظن أن هؤلاء الناس يستحقون حتى المغفرة". شعر يونس بعبء طلب الرب وتحول غضبه بسرعة إلى خوف: "لا أستطيع أن أذهب، لأن أهل نينوى الأشرار سوف يقتلوننى".

قبل فجر اليوم الثانى، ترك يونس بيته بهدوء وتعجل السير على الطريق المؤدى إلى ميناء يافا. كان مصممًا على عدم الذهاب إلى نينوى. شعر يونس بالبؤس وخاف من قراره هذا، خاف من رؤية الرب له وهو يهرب.

عندما وصل إلى يافا، ذهب إلى مرفأ مراسى السفن وبحث عن سفينة جاهزة للرحيل. بعد قليل عثر على واحدة ذاهبة إلى ميناء بعيد عبر البحر الأبيض المتوسط. "يا له من حظ طيب"، هكذا فكر يونس. "بالتأكيد لن يتابعنى الرب إلى ترشيش". لذلك دفع ثمن نقله بالسفينة وصعد عليها، وشق طريقه مباشرة إلى مضجع تحت سطح السفينة. "هنا فى المكان السفلى فى ظلمة السفينة، لن يرانى الرب أبدًا". اعتقد

يونس أنه بمجرد إبحار السفينة بعيداً عن مرأى الأرض، سوف يختفى هو أيضًا عن بصر الرب.

خلال ساعات، أظلمت السماء وأصبحت بلون رمادى داكن، وهبت عليهم عاصفة عاتية. وبرق متشعب ضرب المحيط، وارتفعت أمواج شديدة حول السفينة. مزقت رياح عاتية الأشرعة وأثارت اضطراباً فى البحر. وبدأت السفينة التى تهتز بعنف تمتلئ بالماء ورمى الطاقم بالحمولة الثقيلة من فوق السفينة، آملين التخفيف من ثقلها ومنع غرقها. وأنشدوا صلوات بشكل محموم، مندهشين مما أدى إلى غضب أربابهم إلى هذه الدرجة الشديدة.

وقبطان السفينة، الذى لم يكن قد رأى المسافر من يافا، ذهب للبحث أسفل السطح. حيث وجد يونس يبدو نائمًا، ومن الواضح أنه لم يكن منتبهًا حتى لهبوب العاصفة. هز يونس وقال، "استيقظ وتعالى إلى أعلى، لأن عاصفة شديدة لم أر مثلها من قبل قد هبت". عندما رأى طاقم السفينة يونس على السطح، تحولوا إليه والريبة فى عيونهم. "من أنت يا من استطاع النوم فى هذه العاصفة، ولماذا صعدت إلى سفينتنا من الأصل؟". تساءلوا، لأن البحارة ظنوا عندئذ أن العاصفة جاءت من شر شخص ما. لم يجد يونس الكلمات ليجيب وصرخ أحد البحارة فى وجهه: "اتل صلواتك مثلنا. اطلب من ربك أن يساعدنا الآن".

عندما بدا على يونس أنه عاجز عن الصلاة، غضب كثيرون. "ألست أنت من يعاقبه ربه؟"، أراد الجميع معرفة حقيقة الأمر. وبسرعة أجرى الطاقم قرعة لمعرفة من هو المذنب على متن السفينة. ولدهشة الجميع ثبت

أن الذى وقع عليه سوء الحظ كان يونس. تحول البحارة حينئذ إلى يونس وطالبوه بالتفسير قائلين، "أخبرنا كيف أغضبت السماء وما الذى سيهدئ ربك".

ويونس، الذى يعرف حقيقة الأمر، تكلم أخيرًا: "حاولت الهرب من الرب، لكنه عثر علىَّ فى المياه. كل ما يمكنكم فعله هو إنقاذ أنفسكم. ارموا بى فى البحر العاصف". لم يكن لدى البحارة رغبة فى رمى يونس فى المحيط. بدأوا التجذيف بشدة نحو الأرض، لكن البحر أصبح أكثر اضطرابًا حولهم من كل الجهات. وعندما لم يبد أن هناك خيارًا آخر، قذفوا بيونس فى الأمواج الغاضبة. وفجأة سكنت الرياح وهدأت المياه.

مختنقًا فى المياه المالحة وقد وقع فى شراك الألياف الطويلة المجدولة لطحالب البحر، ارتمى يونس بعنف بين الأمواج. وبعد أن تأكد له أنه غارق، أعد يونس نفسه لصدمة الموجة الهائلة التالية التى ستدفعه بالتأكيد إلى الأعماق ليموت. لكن أمامه كان هناك فم هائل مفتوح تتقد فيه أسنانه المتوهجة. ثم أتى صوت منخفض لتنفس مثل لهاث ثم بدأت كل المياه حول يونس تدور فى دوامة وتتحرك إلى الأمام. وأمسكت به كتلة مياه دوامية تم سحبها بشدة مباشرة نحو الفم المتوحش، كان الفم ينتمى لحوت. مر يونس خلال المدخل الرهيب الشبيه بالكهف ثم، ببلعة واحدة، ابتلعه الحوت بكامله. تم سحب يونس وتقليبه وهو فى مساره اللولبى هابطًا خلال الحلق الهائل إلى أعماق بطن الحوت. كان المكان

مظلمًا، لكن يونس كان يستطيع الشعور بأنه محاط بالماء، وبفضلات المحيط، وأسماك صغيرة تسبح. كانت رائحة الهواء فى الداخل سيئة للغاية بسبب وجود جثث الأسماك شبه المتحللة فى كل مكان. الأصوات الوحيدة كانت صوت القلب النابض للحوت واندفاع الهواء عندما صعد الوحش إلى السطح للمرة الأخيرة قبل هبوطه بفريسته إلى قاع المحيط.

لثلاثة أيام، كان يونس جالساً فى التجويف المظلم شديد الرطوبة فى بطن الحوت. حاول الاختباء من الرب وكان الآن بعيداً جداً، وشعر بأنه سجين فى قبر. وحيداً فى الظلام، طغى شعور غريب على يونس. شعر بالسلام وعرف أن الرب موجود هناك. وجاءت صلاة من القلب إلى شفتى يونس:

يا ربى الأعز. أصرخ إليك من بطن الجحيم وأعرف أنك تسمع صوتى. لأنه حتى عندما تم القذف بى فى البحر وكنت مسحوباً إلى الأعماق البعيدة، ظللت تساعدنى. لثلاثة أيام وأربع ليالى كانت روحى تذوى مبتعدة، ولكن الآن عادت إليها الحياة. أعرف أننى كنت مخطئًا. اغفر لى، وهبنى الفرصة للذهاب إلى نينوى لمساعدة أهلها. أنا ممتن لأنك دائماً معى.

فجأة شعر يونس بانتفاضة كبيرة، كما لو أنه وسط زلزال. تم قذفه بعيداً عندما كان الحوت يتحرك إلى أعلى نحو سطح الماء. ولمع نور فى البطن عندما فتح الوحش فكيه. وبرمية كبيرة، تم دفع يونس إلى أعلى

من خلال النفق المظلم لحلق الحوت نحو ضوء النهار. تم قذفه بقوة خارج فم الحوت وهبط فى مياه البحر الضحلة. خاض يونس إلى الشاطئ، ثم سقط على ركبتيه. "أشكرك، يا رب" هكذا بكى.

كان على يونس أن يفي بوعده للرب. سافر ثلاثة أيام بقلب مبتهج. تحدث مع أهل نينوى وتم تقبل كلماته، لأنها قيلت بحكمة وحنان حصل عليهما حديثًا. وهكذا تغير أهل نينوى ونجوا من محنتهم.

أفعى ميدجارد

عصر جليد، عصر فأس، عصر سيف، وعصر ريح.

ثم عصر ذئب يأتى بالمعركة.

سوف يصارع أودين الذئب الهائل، فينرير.

سيتم التهام أب الجميع فى المعركة.

هناك، أيًا كانت قوته، سوف يحارب معركة حتى يموت

مع أفعى البحر المخيفة، جورمانجاند.

الأرباب، والوحوش، والعمالقة سيواجهون موتهم معًا.

كانت هذه هى النبوءة القديمة التى تنبأ بها ميمير Mimer، رب الحكمة والنبوءة الإسكندنافى، فى بداية الزمان. بدأت رسالته عن الهلاك والدمار فى الظهور على هيئة حركة مروعة من بداية العالم الإسكندنافى. كل شىء كان دراميًا وفوضويًا مع تصادم قوتين متضادتين: قوة الجليد وقوة النار. وشكلت الصدمة عملاقًا ضخمًا منه انبثقت الحياة، أصبح جسمه الأرض ودمه المتدفق البحار.

انقسم العالم الإسكندنافى إلى تسع ممالك. وكانت ميدجارد Midgard هى عالم البشر. وأسجارد Asgard، بيت الأرباب، يشرف عليه أودين Oden، أب الجميع.

أتت القوى المدمرة إلى أسجارد مبكراً. كان لوكى Loki، رب النار وحاكم العالم السفلى، أباً لثلاثة أطفال بالغى الضخامة. فينرير Fenrir، الأكبر، كان كائناً ذئباً بشعاً، وكانت هيل Hel جنية موت شريرة، وجورمانجاند، أفعى مدمرة. وأب الجميع، الذى يعرف الطبيعة الشريرة لهؤلاء الأشقاء المرعبين، خطط سراً لأطفال لوكى أن يتم القبض عليهم وإحضارهم إلى مقر إقامته. وهناك، قرر أودين أن يتم إرسالهم جميعاً إلى مكان بعيد جداً، حيث يكون خطرهم المباشر على الأرباب أقل. وهيل الجنية الشريرة تم ترحيلها على سفينة إلى مملكة نيفلهيم Niflheim، حيث أُحيطت بالبؤس، والأجساد الميتة، والضباب الشرير. وتم تقييد فينرير الذئب، وتكميمه، وإرساله للعيش فى جزيرة نائية. لكن الأفعى جورمانجاند تمت الإطاحة به هنا وهناك فى الهواء وتم إرساله طائراً إلى عالم البشر. وهبط الوحش فى أعماق البحار الشمالية الجليدية.

كان بالغ الضخامة فى عالم البشر حتى إن جسمه، رغم أنه مندس تحت المياه، عندما يتمدد إلى الخارج كان يحيط بالأرض كلها، مع ذيله الذى يستقر فى فمه. وبمجرد الحركة يمكن لأفعى البحر أن يثير فوضى عارمة فى عالم المياه. وبسبب شكله البشع يلتف بمسكة خانقة حول الأرض، تمت تسميته أفعى العالم، أو أفعى ميدجارد.

رب واحد فقط فى أسجارد يمكنه أن يبارى قوة هذه الأفعى الفظيعة. حقًا كان ثور Thor بن أودين أكثر قوة من كل الأرباب. كانت قوته مرئية فى السماوات الأرضية وهو يقذف صواعق البرق، لأنه كان رب الرعد. كان ثور ربا أحمر الشعر تمامًا وذا لحية وكان ممتلئًا بالطاقة الهائلة والشجاعة المطلقة، بينما لم يكن صاحب القدرة العقلية الأكبر. ولأن قدرته الفائقة لم تكن تضعف أبداً، فإن ثور كان يرتدى حزام القوة وقفازا خاصا يعطى ليديه قوة لتفتيت الصخور الضخمة. لكن أكثر أملاكه قيمة كان المطرقة الحجرية، التى كان ثور يسميها مجولنير Mjollnir. كانت فى قوة حجر نيزكى ولها قوة صاعقة برق. وبها حطم ثور الكثير من جماجم العمالقة الأشرار.

وبسبب قوة إرادته الساذجة والعنيدة، لم يكن ثور ينجح أبداً فى أى تحد كبير. وبقدر تعلق الأمر بثور، لم يكن هناك طلب أكثر جدوى من القضاء على أفعى ميدجارد. وطالما كان ثور ينفخ الروح فى الحياة، لأن الأرباب الإسكندنافيين - رغم قوتهم - لم يكونوا خالدين، فإن أكثر مهامه أهمية كانت قتل جورمانجاند.

كانت خطة ثور أن يذهب متنكراً إلى قاعة عملاق البحر العظيم هيمير Hymir. لم يكن هيمير ليتزلف إلى من يسليه، حتى عندما أكل ثور ثورين كاملين فى مأدبة العشاء فى تلك الليلة. فى الصباح التالى عندما استيقظ هيمير مبكرًا للذهاب إلى صيد الأسماك، تبعه ثور، لأنه أراد أن يعثر على أفعى ميدجارد. وعندما أدرك هيمير، صاح ثور: "أتوسل إليك، يا هيمير الطيب، اسمح لى أن أخرج إلى المياه معك فى هذا اليوم

الرائع". لم يجد عملاق البحر أى أذى فى ذلك ووافق. أعد ثور القارب، وخطط سراً لكيفية جذبه لصيده الهائل. "يا هيمير الطيب"، صاح ثور من الشاطئ، "لقد وضعت الخطافات وحبال الصيد فى صفوف، لكننى لم أجد سوى ديدان صغيرة للطعم. أريد أن أمسك بشيء يستحق منزلتك لكى أكافئك على لطفك. أين يمكننى أن أجد طعمًا أكبر؟". هز هيمير كتفيه الهائلين، لذلك تولى ثور الأمر بنفسه. قفز عبر الحقول وانتزع أحد ثيران هيمير بقبضة موت. ثم، بسحبة واحدة، علق رأس الدابة.

ثارت ثائرة هيمير، وصرخ: "باسم الأرباب، أيها الرجل، هل تعرف أية جريمة ارتكبتها؟ لقد فصلت رأس ثورى الجائزة، "السماوى الذى يخور"". تظاهر ثور بأنه لم يلحظ ذلك وصعد بسرعة إلى القارب، ولم يترك لهيمير فرصة سوى اللحاق به. جذب رب الرعد المجذاف مرة واحدة وانطلق القارب سريعًا مبتعداً عن الشاطئ. خلال ثوان أعلن هيمير أنهما فى منطقة صيده، لكن ثور استمر فى التجذيف. توسل إليه هيمير: "توقف الآن على الأقل لأننا نتوجه مباشرة إلى الخطر. هل تعرف أن تحت هذه المياه تتربص أفعى ميدجارد؟". رمى ثور برأسه إلى الخلف وتوقف بالقارب، وهو يضحك فى تحد، وانتزع مجذافيه، وقام بتطعيم حبل صيده برأس "السماوى الذى يخور".

رمى ثور بالحبل على جانب القارب، وهو يضحك بصخب. "سيكون هناك انتظار قصير أمام هذا الشيء اللذيذ جداً الذى يتدلى هناك"، قال بصوت مرتفع. لهث هيمير وانهار فى القارب، لأنه كان خائفا بشدة من الأفعى. وكما هو مؤكد، وخلال دقيقة، تأرجح شيء ما يسحب المركب

بشدة، لأن جورمانجاند كان قد تخلص من ذيله ليرفع رأسه البشع نحو رأس الثور المتدلى. وببلعة واحدة تم الإمساك به فى نهاية حبل ثور. وكان الخطاف قد اخترق سقف الفم الهائل للأفعى. كان هناك جر شديد، وتحركات عنيفة هنا وهناك، والتواء عنيف عند نهاية الحبل، لكن ثور أمسك به بإحكام. كانت معركة شرسة احتاجت إلى قوة شديدة مما جعل رب الرعد يجثو على ركبتيه. وظل ممسكًا بالحبل بقوة.

ثم، فى تحطم مفاجئ، انفصل جزء من قاع القارب ووجد ثور نفسه وقد أصبحت قدماه مستلقيتان على قاع المحيط. وبجذبة سريعة وجبارة واحدة، سحب الأفعى إلى خارج الماء. وكان أمامها وجهًا لوجه، وهو مجمد فى تحديقة الموت، مع أكثر الكائنات إثارة للرعب. ولم يطرف لكل من ثور وأفعى ميدجارد عين.

وفى ذلك الوقت كان هيمير فى حالة ذعر تام. وفى اللحظة التى مد خلالها ثور يده للإمساك بالمطرقة لقتل الأفعى، استسلم هيمير لرعبه وقطع الحبل، محررًا جورمانجاند ليعود إلى البحر. عندما نظر ثور إلى أعلى كان جورمانجاند قد اختفى أسفل المياه المضطربة. وقد ثارت ثائرته، ضرب ثور، بكل قوته الوحشية هيمير ضربة شديدة دفعت عملاق البحر إلى جانب المركب ورمت به فى المياه. ودون أن يلقى نظرة إلى الخلف ليرى كيف يتدبر عملاق البحر أمره، سار ثور على قاع البحر ليعود إلى الشاطئ.

كان قد مضى وقت طويل قبل أن يدخل ثور وجورمانجاند فى صراع من جديد. ولعلها كانت المعركة الأخيرة، كما تنبأت النبوءة القديمة. وقد

تقابل الغريمان عند راجناروك، حيث وقعت معركة شرسة بين الخير والشر، بين أرباب أسجارد والأطفال بالغى الضخامة. ولعدة سنوات، انتظر فينرير فى جزيرته فى انتظار معركة الموت، بينما كانت هيل تنتظر فى ساحتها المهلكة، وجورمانجاند كان متربصًا فى أعماق أرض البحر.

وبدون إنذار واضح، بدأت النبوءة تتحقق كما تنبأ بها ميمير، رب الحكمة والنبوءة.

جاء شتاء لم ينبئ عن قرب انتهائه. فى الحقيقة، كان ذلك هو العصر الجليدى، ثلاث سنوات من شتاء لا ينتهى. وكان أطفال لوكى الأشرار وحلفاؤهم بالغو الضخامة يجمعون القوات: انتزع فينرير الذئب الشمس نفسها من السماوات وابتلعها بكاملها. وكانت أفعى ميدجارد تتحرك ملتوية بابتهاج بشع تحت المياه. وانسحقت الشواطئ بالأمواج العالية بينما كان جورمانجارد يجلدها هنا وهناك، تواق إلى مقابلة أعدائه. وفى تلك البحار الهائجة أبحر طاقم من العمالقة إلى أرض المعركة على سفينة ناجلفار الرهيبة، سفينة صُنعت من أظافر أصابع البشر وعومتها هيل.

نبه ميمير الأرباب بأنه عند سماع بوق هيمدال، حارسهم، فإن ذلك هو نداء إلى المعركة الأخيرة. وانطلق فينرير وجورمانجاند فى طريقهما معًا. تجشأ الذئب لهيبًا وبصق جورمانجاند إفرازًا سامًا. كان العالم يقترب من نهاية مرعبة، كما توقعت النبوءة.

سحب أودين سيفه وحارب مع الذئب فينرير الجبار وتم عزف كلمات ميمير القديمة:

سيتم التهام أب الجميع فى المعركة.

ثور، مهما يكن جبارًا، سوف يحارب معركة حتى يموت

مع أفعى البحر المخيفة، جورمانجاند.

حارب ثور فى المعركة الدموية مع أفعى ميدجارد. استدعى كل قواه الربانية وقوة حزامه وقفازه السحريين، وثبت أفعى البحر البشعة تتلوى فى قبضته. وفى النهاية أمسك ثور جورمانجاند فى أمان وبفرقعة واحدة للجمجمة، ذبح الأفعى. لكن النبوءة كانت قد توقعت موت ثور. وبدون أن يدرك أنه كان يحقق نهاية النبوءة، خطى ثور تسع خطوات إلى الخلف وفى تلك اللحظة، قذفت الأفعى، فى لهثة موت أخيرة مرعبة، سمها القاتل. ملأت الأدخنة الهواء واستنشق ثور الأبخرة القاتلة.

وتردد صدى كلمات ميمير على أرض المعركة فى ذلك اليوم:

الأرباب، والوحوش، والعمالقة سيواجهون موتهم معًا.

عملاق النار، سارت Surt، سوف يكشط الأرض

بسيفه الملتهب.

سوف يشتعل الجميع، ثم يأتى طوفان.

ستغرق كرة الأرض المشتعلة فى البحر.

ستسقط النجوم من السماء ولن يكون هناك سوى

الظلام.

لكن انظروا، سوف يأتى يوم تظهر خلاله أرض جديدة من الماء .

أرض نقية خضراء تضيؤها شمس متوهجة جديدة.

لأنه فى النهاية تأتى البداية.

وحش البحر النرويجي

تحت رعود العمق الأعلى،

بعيدًا، بعيدًا تحت البحر السحيق،

نومه القديم، الخالى من الأحلام

نوم كراكين.

ألفريد Alfred ، لورد تينيسون Lord Tennyson

منذ ثلاثة قرون على ساحل النرويج، رفع وحش بحر عملاق رأسه البشع، وانتشر الكلام حول أن كراكين Kraken كان حقًّا أضخم كائن فى كل محيطات الأرض. خاف صيادو السمك النرويجيون من مياههم وكان البحارة منتبهين كما لم يحدث من قبل عندما كانوا يبحرون عدة أميال بعيداً عن الساحل. كانوا حذرين بشكل خاص فى أيام الصيف الحارة حيث كان من المرجح أكثر أن تجذب الحرارة الوحش إلى سطح الماء.

أول دليل على وجود كراكين كان التغير المفاجئ لعمق الماء، حيث أصبح المحيط أكثر ضحالة مما توقع البحارة. وأحيانًا كانت تظهر

منطقة ضحلة فى المياه، حيث لم يسبق أن رسمها أحد على خريطة. عندئذ، استغرق صيادو الأسماك وقتًا طويلًا وهم يجذفون بشدة. بالنسبة إليهم كان هذا يعنى أن كراكين المدمر كان يسبح تحت المياه وما أسرع ما ستظهر نتوءات ظهره التى يبلغ طولها ميلاً مع أعشاب البحر من أرضية المحيط.

مع تحرك الكائن الضخم، يبدأ الماء فى حركة دائرية ويدور فى دوامات تلتف بسرعة إلى عدة أميال فى كل مكان. "إنه كراكين فى دوامته الهائلة" هكذا كان البحارة يتعرفون على الظهور المروع للتيارات المائية التى تدور بسرعة والموجات الرغوية حولهم من كل جانب. ومهما كانت قوة تجذيفهم، لم يكن أمام سفينتهم سوى أن يتم القبض عليها وأن تدور بسرعة لتسقط فى براثن وحش البحر المرتفع إلى السطح. ويجهز البحارة أنفسهم للرعب الحقيقى الذى يطلق لنفسه العنان فوقهم.

وتشير رشات الموجة العملاقة إلى ظهور كراكين، رأسه وكل جسمه، بينما تكون أذرعه البشعة ذات المجسات قد جرفت الهواء، يرتفع بعضها إلى أعلى حتى قمة صارى أضخم السفن. ويتشبث كراكين بقبضة الموت، ساحبًا السفينة ومغرقًا إياها فى الدوامة الوحشية، وفى الموجات الرغوية إلى أسفل حيث عرينه فى قاع البحر.

هناك حيث استلقى منذ عصور وسوف يستلقى..

سوف يصعد هادرًا ويموت على السطح.

ألفريد، لورد تينيسون

ملوك تنينات البحر

فى أعماق محيطات الصين القديمة كان يعيش أربعة ملوك تنينات بحر وزوجاتهم التنينات. كان كل منهم يحكم أحد البحار الأربعة، لأنه كان من المعتقد حينئذ أن الأرض محاطة فى كل جانب من جوانبها الأربعة ببحر. واعتقد البعض أنه كان هناك فى الحقيقة خمسة ملوك تنينات، حيث الخامس كان ملك الملوك الذى كان يسكن فى المركز بين الآخرين.

كان الملوك التنينات إخوة. أوو شان Ao Shun كان يحكم البحر الشمالى، بينما حكم أوو شين Ao Ch'in البحر الجنوبى، وكان أوو كوانج Ao Kuang فى الشرق، وأوو جان Ao Jun فى الغرب. كان لكل ملك تنين لون مختلف؛ التنين فى الشمال كان أسود اللون، والتنين فى الجنوب أحمر، وتنين الشرق أزرق، وتنين الغرب أبيض. كان لملوك تنينات البحر مخالب حادة وحراشيف كدروع. يمكنهم تجشؤ دخان ولهيب كان يحرق، فى تلك الأزمنة، الأسماك السابحة التى تكون قريبة جداً منه. كان كل منهم ذا حجم هائل حتى إن حركته تهز الأرض، وتجعل البراكين تنفجر إلى أعلى وتتكون أعمدة الماء فوق البحار.

عاش ملوك التنينات فى قصور بلورية فى قاع محيطاتهم. وكان لكل ملك تنين حاشية ضخمة ويلازمه شخصياً وزراء الحاشية. وكان هناك جيش مكون من أسماك وسرطانات قشرية عليه واجب دائم بأن يقوم بدوريات استكشافية فى عالم تحت الماء.

وكان ملوك التنينات يتلقون التوقير لمعارفهم السرية. ولكونهم يقدمون العلاجات، فإنهم يصعدون أحياناً إلى السطح ومعهم علاجات لقرية فى حاجة إليهم وكان من المعتقد أنهم يجلبون حسن الحظ.

لكنهم كانوا يجلبون الرعب فى الغالب. إذ حدث ذات مرة، بعد وجبة من اللؤلؤ والأوبال، أن أغفى ملك تنين قانع تحت الماء، فإن أمواج المد قد ترتفع حتى يهب إعصار التيفون العنيف. وإذا غضب الملك تنين البحر فإنه يرسل العواصف لتسوط المياه وتهب على الشواطئ. فقط تقديم القرابين لملوك التنينات الأقوياء هو الذى يمكنه أن يعيد إليها الهدوء.

سيلا وشاريبديس

يهرول إلى سيلا لتجنب شاريبديس.

فيرجيل Virgil

يبدو البحر الأبيض المتوسط اللازوردى الأزرق هادئًا، لكن هذا المظهر الفاتن كان يمثل تهديدًا مرعبًا للبحارة القدماء. كان مضيق مسينا الذى يؤدى إلى صقلية ممرا محفوفا بالمخاطر، لأنه كان يسكنه اثنان من أكثر وحوش البحر عنفًا التى عرفها العالم. ذات مرة كان مسار ملاح يتجه إلى المضيق، ولم يكن هناك مهرب من تلك الوحوش البحرية. لا يهم كيف سيبحر بحار، حيث كان المر مقبرة مائية مؤكدة للكثير من أفراد الطاقم. كان على البحار أن يختار مصيره فقط بين سيلا، الوحش آكل البشر ذو الستة رؤوس من جانب وشاريبديس، الدوامة المدمرة من الجانب الآخر. لم يكن هذا الثنائى البشع من وحوش البحر دائمًا. وقصتهما محزنة ومأساوية بقدر مصير البحارة الذين انتزعا حياتهم.

بدأت حياة سيلا باعتبارها صبية حسناء. أحبت المياه الصقلية الدافئة وكانت تذهب كل يوم إلى خليج صغير على الشاطئ لتستحم.

كانت سيلا غافلة عن أنها مُراقبة من على بعد. ولم يكن جلاوسوس Glaucus يقصد التجسس عليها فى ذلك اليوم، لكن عندما رأى سيلا فى الخليج فُتن. "هذا البهاء والجمال لم أرهما من قبل لدى أية صبية أخرى"، قال وهو يلهث وقد رق قلبه. وفى توافق عاطفى وثب من الشجيرات. "أيتها الصبية الشابة، لا أعرف من أنت، لكننى عرفت من اللحظة التى رأيتك فيها أننى أحبك كثيراً"، هذا ما قاله.

نظرت سيلا إلى أعلى وهى فى الماء وصرخت من المفاجأة والاشمئزاز. الواقف أمامها لم يكن رجلاً ولكن رب بحر[٨]، له شعر طويل عليه طحلب بحرى أخضر، وجلده بلون المحيط، وله ذيل سمكة مغطى بالحراشيف. "كيف لمثل هذا الكائن العدوانى أن يصرح بحبه؟" تساءلت سيلا.

عندما رآها جلاوسوس وقد أصابها الفزع، أوضح كيف حدث أنه رآها "سيدتى العزيزة، لا تخافى منى. منذ زمن ليس ببعيد كنت صياد سمك أعمل بكل تفانى. ثم حدث ذات يوم أن توقفت فى جزيرة لإخراج صيدى من شبكتى، وتغيرت حياتى". ولأنه استمر يشعر بانزعاج الفتاة، اندفع لتقديم مزيد من التفسير "بعد أن وضعت الأسماك على العشب، اندهشت عندما رأيت أنها، رغم أنه لم يمضى عليها دقائق منذ كانت تلهث للتنفس، بدأت تتلوى. وأمام عينى عادت للحياة تماماً، بقفزات

(٨) رب بحر فى الأساطير الإغريقية triton : ابن بوسيدون وأمفترايت، وهو ذو رأس إنسان وذيل سمكة - المترجم.

هائلة، وقذفت كل سمكة بنفسها لتعود إلى البحر. أثار ذلك فضولى بشدة حتى إننى فحصت العشب الذى كانت الأسماك موجودة عليه. وضعت نصلاً فى شفتى ثم ذقته. ارتعدت وتحول جسمى إلى ما ترينه الآن أمامك".

نظرت سيلا بحزن وقد تأثرت مشاعرها من قصته وظن جلاوسوس أنها ستبكى. وفجأة طمأنها: "لا تشعرى بالأسى من أجلى، لأنه مع هذا التحول امتلأت بتوق شديد ورائع للعيش فى البحر. اتبعت هذا النداء واحتضننى بوسيدون العظيم باعتبارى رب بحر".

وسيلا، رغم تحرك مشاعرها بقوة تجاه قصته، نظرت مباشرة إلى عينى رب البحر وجرت مبتعدة عن الماء "لا يمكنك أن تحبنى كما تقول لأنه لا يمكننى أبداً، أن أبادلك العاطفة أبداً"، هكذا صرخت وهى تنظر إلى الخلف حيث جلاوسوس. "أتوسل إليك ألا تتركينى وحدى فقد آتى من جديد للتمتع بمياه هذا الخليج فى الخفاء"، هكذا قال جلاوسوس.

ومع ذلك، شعر رب البحر بالابتلاء وبحث عن مساعدة من سيرس Circe، الساحرة العظيمة، ليفوز بقلب سيلا. ولأن جلاوسوس لم يكن يعرفها،لم يكن لدى سيرس أية نية لمساعدته، لأنها هى نفسها كانت منجذبة قطعًا لرب البحر الشاب وغاضبة من تجاهل سيلا لهذا الكائن بالغ العذوبة والمحبب للنفس.

تعهدت سيرس بأن تنتقم من سيلا، وكان نوع انتقامها شريراً ومرعبًا. فى تلك الليلة أعدت شرابًا سحريًا مخمراً من الأعشاب المرة.

"فلتعرف، تلك التى يحبها بشدة رب البحر، كيف يكون حال من هو بشع حقًا"، لعنت وهى تسرع بإكسيرها إلى خليج صقلية. وفى ضوء القمر، سكبت سيرس مزيجها الشرير فى المياه وانتظرت أن تأتى العذراء إلى حمامها.

بعد الفجر مباشرة، وصلت سيلا وخاضت فى ماء البحر المسموم. فوراً نمت لها اثنا عشر قدما ممشوقة وذيول طويلة عجيبة. حركت أصابعها بهدوء فى الماء وأصبحت يديها مخالب مغطاة بالحراشف. ثم غطست بجسمها كله فى البحر المالح الدافئ. وإلى أعلى انبثقت ستة أعناق ثعبانية، لكل منها رأس وحش مخيف، بثلاثة صفوف من الأسنان الحيوانية الحادة الرهيبة.

وحدث الكثير لروح العذراء البريئة. أصبح لسيلا الآن طبيعة وحش وغرائز شديدة للقتل. غاصت بعيداً فى البحر وسبحت بقوة وحش حتى وصلت إلى فتحة الخليج. جوفت كهفًا كبيرًا فى واجهة صخرية وغاصت فيه إلى خصرها. وهناك ظلت مختبئة، تنتظر دائمًا بحارة لا يرتابون فى شىء يمرون خلال الطريق البحرى المزدحم. بمجرد وصولهم إلى مجال قبضتها، تتقدم إلى الأمام لتكسحهم من على ظهر السفينة بمخالبها القوية. عندئذ تهبط رؤوسها الستة بسرعة ويستطيع كل فم متوحش أن يقتلع رجلاً من على مقاعد المجذفين. يناضل البحارة لتخليص أنفسهم من بين فكوكها الرهيبة، لكن لا أحد استطاع الهرب منها أبداً. وتنتهى حياتهم فى طحنة بشعة بأسنانها القوية أو، وهو الأكثر رعبًا، يكونوا سيئى الحظ بما يكفى لسحبهم بعيداً إلى عرينها ليتم تخزينهم حتى ينقض عليها الجوع من جديد وقد طالت فترة موتهم.

صدق أو لا تصدق، كانت سيلا الأقل تهديداً من كلا الجانبين، لأنه للاختيار بينهما كانت شاريبديس هى التى تقرر موتًا محدداً لكل الطاقم وتعلن مسئوليتها عن تدمير السفينة. هذه الدوامة العطشانة دائمًا كانت أيضاً فى وقت ما صبية، لكن قصتها ليست بمثل براءة قصة سيلا.

فيما لا يشبه سيلا اللطيفة، التى كانت جريمتها الوحيدة أن ساحرة كانت تحسدها، كان قد تم لعن شاريبديس لحماقتها وجشعها. كانت أميرة فاسدة ومدللة تطالب بتلبية كل رغبة لها على الفور. وبينما كان ذلك صعب جداً بالنسبة لمن يرافقونها، كانت لا تُحتمل بالنسبة للخالدين. لم يكونوا يطيقون مثل هذا السلوك.

فى يوم ما، أزعجت أعمالها الربة ديميتر Demeter. كانت شاريبديس، بتصلبها، قد تجاهلت التماسات حورية غابة لترك الأشجار وشأنها. وبسبب إهمال الطبيعة تعلمت شاريبديس درساً قاسياً.

ألقت ديميتر لعنة المجاعة على الأرض متخفية فى تينة ضخمة نمت على شجرة خارج نافذة شاريبديس. فى الصباح التالى، عندما استيقظت الأميرة، بدا أن الفاكهة المثيرة للعاب تغريها. انتبهت الفتاة الخادمة للتينة ولاحظت كم كانت تبدو ممتلئة وريانة. ولأنها كانت جائعة جداً، سألت إذا ما كان يمكنها أخذها. لكن الأميرة الأنانية وثبت من مخدعها، وانتزعتها من بين يدى الخادمة، ودفعتها فى فمها، بمجرد أن ابتلعتها شاريبديس أمسك بها جوع وعطش لا ينطفئان، لا نهاية لهما أبداً.

حشت الأميرة وجهها بكل لقمة طعام وجدتها. ولأنها ظلت جائعة، انتقلت إلى مراعى أبيها، حيث بدأت تلتهم كل الخراف والأبقار. وأصبحت شهيتها أكبر وأكثر رعباً. بدأت تهاجم الناس فى بيوتهم.

فى تلك اللحظة نظر أقوى الأرباب إلى أسفل إلى ما دمرته وقرر أن ينقل خطر التعطش للدم بعيداً عن الإغواء. أرسل ضربة ريح بدأت تبرم الأميرة البدينة الحقودة حول نفسها بشكل هائج. رفعتها الريح فوق الأرض ودارت بها فى الهواء حتى وصلت إلى مضيق مسينا، على الجانب الآخر من مكان سيلا البشعة. وهناك، ألقت بها بقوة فى المياه وأصبحت سجينة فى مكانها بصخرة ضخمة لها علامة شجرة التين.

ظل عطشها المرعب يتطلب إطفاؤه أن تشرب المد ثلاث مرات فى اليوم، مبتلعة كل ما يمر فوقها. فى كل مرة، تجفف المياه تماماً حتى يمكن رؤية وحل قاع البحر. ثم بضربة رهيبة، تبثق شاريبديس المياه معيدة إياها وتكوّن قوة الطوفان دوامة فى مساحة شاسعة حول صخرتها. أى سفينة تمر قريبة من المكان كان يتم سحبها فى الدوامة وابتلاعها. وتكون قوة الصدمة شديدة حتى إنها تسحق كل السفن إلى شظايا فى لحظة واحدة وتمسك القوة العنيفة برجال الطاقم، وتسحبهم إلى أسفل حتى يموتوا.

كانت اللعنة المزدوجة لسيلا وشاريبديس مأزقا لكل ملاح يبحر فى المضيق بين إيطاليا وصقلية. وكانت الملاحة فى ذلك الممر الضيق تكلف دائمًا تكلفة ضخمة من حياة البشر. وكان الإبقاء على أكبر عدد ممكن من البحارة يتطلب مهارة ومجازفة. وكان الحل العملى الوحيد لأغلب البحارة هو"الهرولة إلى سيلا لتجنب شاريبديس".

٣

قصائد إيقاعية فاتنة، مخلوقات خيالية أسطورية

مشاهدة حورية البحر

فى هذا الصباح شاهد أحد رفاقنا وهو ينظر من فوق سطح السفينة حورية بحر، واستدعى بعض الرفاق لمشاهدتها، وجاء رفيق آخر، وفى تلك اللحظة كانت قد اقتربت من جانب السفينة، وهى تنظر بجدية إلى الرجلين، بعد ذلك بقليل ارتفع البحر وتسبب فى انقلابها من البطن إلى أعلى، كان ظهرها وثدياها يشبه ما لدى النساء (كما يقول من رأوها) وكان جسمها فى حجم جسم أى منا، وجلدها أبيض تمامًا، ويستلقى شعرها الطويل خلفها، باللون الأسود، وبينما كانت تهبط إلى أسفل شاهدا ذيلها، الذى كان يشبه ذيل حوت خنزير البحر، ومنقطا ببقع صغيرة مثل سمكة إسْقُمْرِى. واسما من شاهداها توماس هيليس وروبرت راينار.

من السجل الرسمى لسفينة

هنرى هادسون ١٥ يونيو، ١٦٠٨

رجال المينتش الزرق

يا للهول من ضجر الرجال الزرق، وغضبهم ومكرهم.
طوال كل النهار، وطوال كل الليل،
يطلقون رشاش المياه حول الجزر،
يطاردون كل صياد أسماك - كم هو مؤلم!
يلازمون حلم الصياد
عندما تضرب الموجات المتلاطمة، يا للألم،
من يمكنه عبور مجرى الرجال الزرق؟

أغنية مراكبى مينتش

تمثل جزر هبرديز نقاطًا فى البحار العاصفة الصاخبة لهايلاندز فى إسكتلندا. ويجرى مضيق صغير بين جزر فى أقصى الشمال - جزر لويس وشانت. والآن تسمى جزر شانت غالبًا الجزر الفاتنة. وللمضيق لقب، لكنه لقب يدل على الغدر وليس الفتنة. يطلق عليه صيادو الأسماك المحليين أحيانًا "تيار التدمير"، لكن المتوقع أكثر أن تسمعهم يتحدثون عن مجرى الرجال الزرق.

فى مياه هبرديز الخارجية تلك تعيش غرانق الماء(٩) الغريبة الخبيثة المعروفة بأنها تحدث اضطرابًا فى الأمواج المخيفة. يتسببون فى عواصف فوضوية تغرق تلك السفن التى يصل بها التهور إلى حد المجازفة بعبور هذا المضيق. ولهذه الغرانق وحشية وفظاظة البحار التى يسكنون فيها. لأجسامهم الضخمة القوية لون رمادى مزرق قاتم، ووجوههم معبرة ومحمومة، محاطة بلحى رغوية، وشعر فى زرقة البحر، وحواجب عيون مغطاة بقشور فى رذاذ الملح. إنهم رجال المينتش الزرق.

تعيش عشيرة الرجال الزرق وقائدهم فى كهوف على طول أرضية المحيط. وعندما يكونون فى مساكنهم فى الأعماق أسفل الأمواج، تكون القناة هادئة. وعندما يصعد الرجال الزرق إلى السطح ليوم من اللهو الجامح، تبدأ المياه فى الاضطراب. يحبون التزلج فى المحيط بسرعات فائقة، وهم يهتزون إلى السطح ويرشون المياه فى عاصفة ويلطمون البحار بأذرعهم الزرقاء الطويلة. المضيق هو ملعبهم ويلقنون أية سفينة تقتحمه دون إذن درسًا يستغرق وقتًا طويلاً.

تتجنب أغلب السفن المينتش، وتختار تفويت فرصة الممر الأقصر وتبحر عبر طريق طويل حول جزر شانت. لأنه حتى عندما تبدو القناة هادئة، قد ينتهى هدوء المياه فى أقل وقت ممكن. تعنى البحار الهادئة فقط أن الرجال الزرق يرتاحون فى كهوفهم. عادة يكون أحد حراسهم

(٩) غرانق الماء mermen : مخلوقات خرافية أسطورية تُصور بأنها رجال نصفهم الأسفل على هيئة سمكة - المترجم.

قائمًا بعمله تحت سطح الماء مباشرة. وعندما تقترب سفينة، يغوص لإبلاغ عشيرته بالمتطفلين.

قوة الرجال الزرق أسطورية. يمكنهم تعريض سفينة للدمار بيد واحدة تمتد خلال المياه. ويعرف ربابنة السفن فوقها أن الوقت قد حان للانتباه لكل تفاصيل التغيرات المتعاقبة. وبينما يكون فى استطاعة الرجال الزرق قلب سفينة بسرعة فى لحظة، لا يفعلون ذلك. ليس على الفور، هذا هو كل ما فى الأمر. فبقدر حبهم لرش المياه فى الرذاذ فإنهم يستمتعون بمباراة كلامية على هيئة منافسة فى السجع.

إذا كان ربان السفينة ذو عقل بليد وليس له ذوق فى سماع الشعر، فبالتأكيد سوف يُحكم على السفينة بالهلاك. يبدأ الرجال الزرق المنافسة فى الكلمات ببيتين من الشعر. وعلى القبطان عندئذ أن يرد بمقطع شعرى من بيتين متتاليين لهما نفس القافية والبحر الشعرى. يكون الكثير من أفراد الطاقم فى خطر، لأنه سيُقضى عليهم جميعًا عندما يعجز الربان عن توفير الكلمة الأخيرة. يرفع الرجال الزرق السفينة من المياه، ويهزونها فى الهواء، ويرمونها بعنف مثل رمح خفيف حتى تهبط وتغرق فى المينتش.

قليلون هم الذين نجحوا فى مواجهة تحدى الرجال الزرق، لكن هؤلاء الذين نجحوا سجلوا تنافسهم حتى يعرف الآخرون المهارات الغريبة المطلوبة لعبور المضيق. مباراة معروفة فى الشعر مع غرانيق الماء هؤلاء كانت كما يلى:

ماكلود MacLeod، ماكاى Mackay، من جزيرة سكاى Skye

هل تجرؤ على عبور المضيق؟

نعم، أيها الرجال الزرق هناك، لقد فعلت ذلك حقًا

حتى لا تتأخر سفينتى.

لن تمر سفينتك أبدًا

إلا إذا نظمت على شعرى.

حسنًا هيا نستمر لأن الوقت يمضى.

أنا مستعد للتحاور.

تظن أنك ذكى، أيا الرجل القبطان،

ولن تتفوق علىَّ بذكائك أبدًا.

لقد نقرت بأصابعى بينما أفكر

وسأدفعك إلى ما يناسب الإيقاع.

كن هادئًا وتكلم بقوافى أكثر ذكاء .

فكما ترى أنا أهز هيكل سفينتك.

أنت تخل بتوازن سفينتى بقوة وحشية تمامًا.

وليس فى استطاعتك الإخلال بتوازن عقلى.

يبدو لى أنك تتخيل أنك فائز.

سوف أغرقك تحت الأمواج.

إذا كسرت فقط قواعد لعبتك النزيهة

سوف تنتقم روحى من كهوفك.

يعرف رجال المينتش الزرق متى تحدث خسارة واضحة فى معركة الكلمات. وعند إشارة الحارس تغوص العشيرة إلى أسفل تحت الأمواج، ويهدأ سطح المياه، ويُسمح للقبطان المنتصر وطاقمه بالمرور الآمن خلال المينتش.

أهل البحر

أنا رجل على الأرض

أنا فقمة مسحورة فى البحر

وعندما أكون بعيداً عن أى شاطئ

يكون سكنى فى حيد سيل البحرى Sule Skerrie .

من "الفقمة المسحورة Selkie[(١٠)]

الرمادية من سيل سكيرى" .

هذا الشعر من قصة شعرية شعبية تُغنى فى هبرديز الخارجية فى إسكتلندا. وحيد سيل البحرى صخرة تقع فى بحار على مسار السواحل الجنوبية الغربية لجزر أوركنى Orkney. وتحب عجول البحر التجمع على ذلك الحيد البحرى الصخرى المنعزل والتشمس فى دفء الشمس. وتنطلق أصواتها فوق الأمواج إلى الناس على شاطئ الجزيرة. وتحكى

(١٠) فقمة أو عجل بحر selkie : تكتب أيضاً silkie أو selchie وهى كلمة إسكتلندية لكلمة seal الإنجليزية (وفى الإنجليزية القديمة seolth) وتشير الكلمة الإسكتلندية إلى كائنات خرافية تنسلخ عن جلدها لتصبح بشرية لذلك يمكن تسميتها بالفقمة المسحورة - المترجم.

القصص عن الفقمات التى جاءت إلى الشاطئ عندما أصبح الناس أيضًا جزءًا من حياة الجزيرة مثلهم مثل الأمواج المتلاطمة باستمرار هنا وهناك.

يظن بعض الناس أن أهل البحر هم أرواح هؤلاء الذين غرقوا فى البحر. ويعتقد آخرون أن الحيود البحرية الصخرية ملائكة ساقطين. وتتسم القصص عنهم بالندم والاختيارات المحزنة التى على المرأة الفقمة أن تقوم بها، بينما تكون الأغانى والقصص الشعرية الشعبية عن الفقمات فى الغالب أكثر أسى.

المرأة الفقمة المسحورة

ذات مساء فى أواخر يونيو، كان رجل فى الخارج يمشى بعد نهار طويل من صيد أسماك الإسقمرى. كان شاطئ البحر مضاء بالبدر المشرق فى صعوده. وعلى ضوء القمر، بدت الصخور، والرمال، ومياه الخليج الصغير العادية غريبة فى عينيه. شعر بأنه كان يسير عبر شاطئ مختلف تمامًا عن شاطئه الخاص فى أوستيسل Uistisle الشمالية. ربما كان شكل الشاطئ قد تغير، لأن تلك الليلة فى يونيو لم تكن سوى عشية الانقلاب الصيفى. لم يكن الرجل الشاب قد أعطى اهتمامًا لقصص المسنين عن سحر الانقلاب الصيفى؛ وقت يقولون عنه أن الأرواح والسحرة قد يقدمون أنفسهم فيه للناس العاديين. كانت جزر الهبرديز الخارجية مليئة بمثل هذه الحكايات، لكن الشاب كان يظن رغم ذلك أن ليلة واحدة لا بد أنها ليلة تشبه الليالى الأخرى. كان فى الخارج فى جولة ليلية متأخرة ولا أكثر من ذلك. لم يكن يتوقع بالتأكيد أن يظهر

أى شىء غير عادى، لذلك فإن الضحك والغناء اللذين سمعهما آتيين من أسفل الشاطئ لم يصدمانه كشىء غريب على الإطلاق.

وعن غير قصد تبع الموسيقى، وما أسرع ما أدرك أنه قد سار مسافة طويلة هابطًا مع الشاطئ فى تلك الساعة المتأخرة. لكن المرح الصاخب بدى آتيًا من الصخور أمامه، وكان لديه شغف عندئذ لأن يرى المصدر. شق طريقه بسرعة أسفل الشاطئ وبلغ الذرى حول الصخور الضخمة.

ومن ملاذ له فى كهف صغير، رأى على الرمال الرطبة المتلألئة، مجموعة من النساء الجميلات يرقصن فى دائرة. كن يضحكن ويغنين وهن يدرن بسرعة حول أنفسهن فى ضوء القمر. اكتشف الرجل الشاب بسرعة من كنّ.

كان الناس كبار السن يتكلمون عن أهل البحر - الفقمات المسحورات، كما أطلقوا عليهن - اللائى يرقصن على الشواطئ كل ليلة عشية الانقلاب الصيفى. ولم يكن الشاب يعتقد بأن فى استطاعة فقمة أن تنسلخ عن جلدها، ناهيك عن المجىء إلى الشاطئ على هيئة إنسانية. لكنه استطاع أن يرى بوضوح، من المكان الذى كان يراقب منه النساء وهن يرقصن، جلود فقمات موضوعة على قمم الصخور وعلى الرمال. تذكر القصص الأخرى عن الفقمات المسحورات فزحف بهدوء على الشاطئ فى ظل الصخور الضخمة. عندما اقترب من أول جلد فقمة، التقطه وأخفاه فى سترته. روعت الحركة المفاجئة واحدة من أهل البحر، وفى لحظة، تحطمت تعويذة الانقلاب الصيفى. توقف الرقص والغناء.

وكان هناك اضطراب شديد وصيحات هائجة بينما كانت صبايا الفقمة يجرين كلهن للعثور على جلود الفقمات الخاص بهن.

برشاش ماء مرتفع الصوت، غصن كلهن من الصخور عائدات إلى البحر. كل صبايا الفقمات عدا واحدة كما كان واضحاً. اندفعت بسرعة من صخرة إلى أخرى ثم عبر امتداد الرمال، باحثة عن جلد فقمتها. جرت يائسة إلى الشاطئ ثم، وهي تمد ذراعيها الطويلين البيضاوين إلى الخارج في البحر، طلبت من صديقاتها الفقمات أن ينتظرنها. أجبن بصيحات انزعاج، ثم تسللن بعيداً عن مرمى البصر تحت الأمواج. انهارت الصبية الفقمة على الرمال الرطبة وبدأت تبكي بأصوات يأس شديد.

تحرك الرجل الشاب خارجاً من الظلال وأسرع إلى الشاطئ. وقف بهدوء أعلى الصبية الفقمة التي كانت جالسة في رغوة البحر مغطاة بشعرها الطويل الأسود. عرف أنه لم يسبق له أن حدق في مثل هذا الجمال، لأن جمالها لم يكن بالفعل من هذه الأرض. نظرت إلى أعلى إليه بعينين مناشدتين، غديران بنيان داكنان تتدفق منهما الدموع. كانت ذات جمال يرق له القلب وعرف هناك فوراً أنه أحبها.

صاحت صبية الفقمة الفاتنة: "أيها السيد الكريم، أرى أن لديك جلد الفقمة الخاص بي. إشفق عليَّ وأعده إليَّ، فبدونه لن أستطع أن أعود أبداً إلى البحر، الوطن الذي أحبه". ومرة أخرى بكت بتفجع مثير للشفقة، وهي تلوي يديها بألم شديد.

أحبها الرجل الشاب، لكن توسلاتها لم تؤثر فيه. كان قد قرر بالفعل أن هذه هى المرأة التى عليه أن يتزوجها، وبالتأكيد سوف تشكره فى يوم ما على رفاهية الحياة على الأرض. "أيتها السيدة العزيزة المهذبة"، بدأ الرجل الشاب، "أريد أن تكونى زوجتى. وأعدك بحياة سعيدة على الشاطئ، حيث ستكونين دائمًا موضع رعاية وحميمية. انهضى، أيتها السيدة المحبوبة، وتعالى معى".

نظرت إليه ورأت أنه عازم على هذا الأمر. لم يكن أمامها ما تفعله، لأنه أمسك بها وانطلق فى اتجاه بعيد عن البحر. "عدنى بشىء واحد إذن، أيها السيد"، توسلت الصبية الفقمة. "قم برعاية جلد الفقمة الخاص بى لأنه إذا وقع عليه أى أذى، سيقع علىَّ أنا أيضًا".

"الآن يمكننى أن أعدك بذلك، لأننى غير راغب فى أن أفقدك"، قال الرجل الشاب. تشبث بجلد الفقمة بقوة فى إحدى يديه، ووضعه خلف ظهره. نهضت الصبية الفقمة ببطء وخلع الرجل سترته. ارتجفت وهو يضع سترته على كتفيها. وسارا معًا عائدين إلى القرية الصغيرة.

تذكر الرجل الشاب كلمات قصص المسنين: "على المرء فقط أن يتزوج بالصبية الفقمة السحرية فى الليلة الثالثة بعد أن يجدها". وهكذا تزوجا وأحضر الرجل الشاب عروسه الجديدة إلى كوخه الصغير المغطى بأوراق وسيقان النباتات، وهو مسكن متواضع عليه خطوط من الطين وملح البحر من الهبات العنيفة المستمرة للريح ورذاذ البحر. وفى داخله كان مريحًا ودافئًا بما يكفى ووجدت المرأة الفقمة نفسها مع كل الرفاهية التى وُعدت بها. كانت النار فى مدفأة الحجر الكبير مشتعلة باستمرار طوال

اليوم لإبعاد الرطوبة. فكرت فيها بوصفها مشهداً ممتعًا، لأنها تذكرها بالتألق الأحمر للشمس عندما كانت تشرق فوقها فى الأفق، عندما كانت فى بحرها العزيز. وعندما تاقت إلى وطنها البحر، نظرت مباشرة إلى هذا التوهج ووجدت وسيلة لبعض الراحة.

لم يكن الأمر أنها بائسة. مع مرور الزمن، شعر الزوج بثقة تامة أنها كانت تتمتع بالفعل بأن تكون زوجته وأم أطفاله السبعة. حقًا، كانت زوجة طيبة ومتفانية فى العمل مثل أية امرأة فى القرية. حافظت على الكوخ نظيفًا، وأعدت الخبز، وبدت مستمتعة بغزل الصوف من جزة خصلات شعر الخراف التى ترعاها.

كان أهل القرية الذين يأتون للزيارة يرونها امرأة أكثر جاذبية، برغم الجانب الهادئ والخجول فيها. لاحظ الجميع أنها محببة إلى النفس. كان شعرها الأسود اللامع ينسدل بشكل جميل حول وجهها المستدير. لكن تعلق الأمر بهاتين العينين الهائلتين واللطيفتين، والبنيتين اليانعتين بشدة فى لحظة، ثم الراقصتين بحماس بكل لون فى اللحظة التالية. فى أوقات ما تكونان عينين بذكاء حاد، لكن كانت هناك لمحة من الألم والأسى عندما كانت المرأة الفقمة تحدق إلى أعلى، غير مدركة أن هناك من يراقبها وهى مهمومة. لاحظ البعض نسيجًا ضئيلاً بين أصابعها، وخشونة راحتى يديها، وبطء تنفسها. كانت تلك علامات مؤكدة للمرأة الفقمة السحرية وانتشر الكلام. رأت امرأة عجوز من أويست Uist أن لديها معرفة عميقة، وكان من المعروف عمومًا أنه يمكن للمرأة الفقمة السحرية أن تقرأ المستقبل وتتنبأ بالأحداث. وقالت امرأة عجوز أخرى

لأهل القرية أن للمرأة الفقمة عينى روح ساحرة ترغب فى الانطلاق من السجن.

استمرت المرأة الفقمة فى الغالب محافظة على أسرارها وظلت مشغولة بإدارة بيتها وتربية "الأطفال الصغار"، كما تعلمت أن تشير إلى أطفالها. وظهر لدى كل صغارها السبعة حب شديد للبحر، وكانوا سباحين وغواصين ممتازين. أحبت المرأة الفقمة أطفالها وعندما كان يصيبهم المرض، كانت تستخدم معرفة أهل البحر بالأدوية لعلاجهم. كانت تحدق غالبًا إلى خارج نافذة الكوخ المواجهة للشاطئ، وخشى زوجها مما قد يجذبها لهذا التفكير العميق. كان قد نما لديه حب شديد لها وتذكر كارهًا التحذيرات فى قصص الفقمات المسحورة: "النساء الفقمات المسحورات قد يكن زوجات وأمهات جيدات، لكنهن لا يفقدن أبدًا حبهن للبحر".

طوال سنوات لم يتحدثا عن جلد الفقمة، لكن الزوج حافظ على وعده الذى قدمه لزوجته. رعا هذا الجلد، صانه جيداً وحفظه فى أماكن جافة حتى لا تفسده الرطوبة. وكان يفحصه من وقت لآخر لكى يحافظ عليه لامعًا وناعمًا. لم يكن جلد الفقمة شىء يمكنه بسهولة أن يحافظ عليه مختبئًا، لكنه كان يجد فى كل عام مكانًا جديدًا ليخفيه فيه. أخفاه ذات مرة فى مكان مرتفع فى الجزء الناتئ من حافة سقف الكوخ، فى مرة أخرى أقفل عليه فى خزينة البحر لديه وكان يطمئن دائمًا بحمله للمفتاح. والآن فكر فى أن من الآمن أن يخفيه تحت كومة قش مرتفعة.

ذات مرة بعد الظهر، عندما كان الزوج فى الخارج يصطاد فى المياه بجانب الجزيرة، أرسلت الزوجة أطفالها إلى الخارج ليلعبوا قبل العشاء. كان الجو حاراً فى الكوخ بسبب إعداد الخبز وكانوا سعداء عندما هرولوا إلى الخارج فى هواء الخريف البارد. وعلى الفور كانوا قد شرعوا فى لعبة الاستغماية. راقبت المرأة الفقمة خارج النافذة صغارها الستة منتشرين بينما الأكبر كان يعد ثم انطلق يبحث عنهم. استمرت فى الطهى، لكن ما أسرع ما قاطعتها صيحات عالية من الخارج. خائفة من أن يكون أحدهم قد أصابه أذى، اندفعت خارجة من باب الكوخ.

"أماه، تعالى بسرعة. الصغير جيمس وجد حيواناً ميتاً مدفوناً فى كومة القش". جرت إلى الحقل ونظرت إلى الأسفل حيث أصغر أطفالها يبكى فى القش. "أماه، انظرى فحسب"، انتحب، "الفراء فقط ولا شىء غيره".

حدقت المرأة الفقمة عندما حبست أنفاسها وجثت لتفحصه. لم يكن فراء قطة أو كلب، لكنه كان جلد الفقمة الخاص بها هى. نظرت إليه ثم قالت، "لا بأس، يا صغارى الأعزاء. ابتعدوا لتلعبوا وأنا سوف أتولى هذا الأمر". راقبتهم حتى ابتعدوا، ثم نظرت إلى أسفل من جديد إلى جلد الفقمة العزيز الخاص بها. كم من الزمن انتظرت هذه اللحظة، والآن ها هى ترتعد لتلمسه. كل ما يتعلق بشعورها كان يشبه حلماً مبهجاً. بدت أصوات أطفالها المحببة بعيدة جداً، وأصبح الكوخ الصغير باهتاً من على مسافة. عانقت جلد الفقمة بحب وفجأة تلاطمت الأمواج بصوت مرتفع على الشاطئ خلف الحقل. لم تجرؤ على التقاطه، وكان عليها أن

تعود إلى الكوخ. "كم هذا مؤلم، أيها الفتية الصغار يا أحباء قلبى، لايمكننى أن أترككم". وانتحبت، لأن صوت الأمواج أصبح أكثر ارتفاعاً فى كل مكان من حولها.

أمسكت بجلد الفقمة ورفعته وكانت رائحة البحر لا تزال موجودة فيه. فى تلك اللحظة جاءت الريح بالرائحة الجامحة للبحر من على الشاطئ، ومعها، صوت الأمواج المتكسرة وهى تضرب الرمال. جرت بسرعة إلى الشاطئ. حملت الجلد على ذراعيها، ثم صاحت بصوت مرتفع فى اتجاه الكوخ. أوقف الأطفال ألعابهم وأنصتوا لصوت أمهم الوديع فى الريح. "أطفالى المحبوبين"، قالت، "علىَّ أن أغادركم لأعود إلى وطنى فى البحر، لأن لدىَّ هناك سبعة أطفال آخرين. تذكروا يا صغارى الأرضيين الأعزاء، أننى سأظل أحبكم وأطل عليكم دائمًا. كل يوم عندما تسيرون على الشاطئ تطلعوا إلى البحر. سوف أخرج من المياه لأراكم. أعدكم بأن أترك أسماكًا وثروات صغيرة من المحيط على الصخور من أجلكم كل يوم. وسوف أحافظ على أمنكم وأمن أبيكم فى المياه. ودِّعوه من أجلى وأخبروه أنه كان رجلاً طيبًا تجاهى كل تلك السنوات. أحبكم جميعًا".

فى تلك اللحظة كان الأب فى طريقه عائداً فى قاربه من الصيد اليومى. جرى الأطفال يبكون إلى الشاطئ. صاحوا، لكن أمهم لم تعد تسمع أصواتهم كانت تسمع الأمواج فقط. راقبوها ولم يكن هناك ما يمكنه إيقافها، كما لو أن الجذر نفسه كان يجذبها. ارتدت جلد الفقمة الخاص بها وغاصت فى البحر. وبعيداً على الشاطئ ظهر ذكر فقمة

ضخم واستدعاها. عاد غناؤها إليه بالفرح الغامر. انتظر أن تأتى إليه، ثم اختفيا معًا تحت الأمواج.

وكما طلبت منهم أمهم أن يفعلوا، كان الأطفال يهبطون إلى البحر فى الصباح. ودائمًا على الصخور كان يجدون الأسماك لوجبة يومهم، والقليل من القواقع والأحجار الجميلة. ثم يستمعون إلى أغنية البحر العذبة المبهجة الصادرة عن أمهم. وعندما يتطلعون إلى المياه كانوا يرون دائمًا نفس الفقمة الجميلة تظهر، وتتمايل قليلاً، ثم تغوص تحت الأمواج. وفى أغلب الأحيان عندما كانوا يسيرون على الساحل، كانوا يجدون كنوزًا مغسولة على الشاطئ. عرفوا أن أمهم العزيزة كانت تتطلع إليهم.

وكان الأب يشعر أيضًا بوجودها كلما كان فى الخارج يصطاد. كان حظه أفضل بلا شك مما كان من قبل فى أى وقت فيما يخص صيده، وأصبح قاربه يبحر فى أمان فى أعتى العواصف. بمجرد أن تسبح فقمة بالقرب من قاربه، وعندما ينظر بتمعن، كان يثق بأنه رأى دموعًا كبيرة فى عينيها البنيتين الرقيقتين.

لم تعد المرأة الفقمة أبدًا إلى عائلتها فى الهيئة البشرية، لكن أطفالها كبروا وأصبحوا معالجين عظام ويمكنهم إخبار الناس بالحظوظ. كان لهم جمال غير عادى وارتبط بهم الكثير من قصص القرية. قال البعض إنه كان لديهم نسيج بين أصابع أيديهم وأرجلهم، وبقع ذات حراشف على جلودهم وهى سمات أتت إليهم من أمهم الفقمة المسحورة. فى أويست الشمالية، أطلق عليهم أهل الجزيرة Silochd nan Ron، وهو ما يعنى ببساطة "ذرية الفقمات".

مـأثـورة حـوريـة الـبـحـر

من تكون حورية البحر الجميلة،

التى تغنى بمفردها، وتضم شعرها

تحت البحر على هيئة خصلة ذهبية ملفوفة

بمشط من اللؤلؤ على عرش؟

من حورية البحر لألفريد Alfred ،

لورد تينيسون Lord Tennyson

مأثورة حورية البحر

كان من المعتقد أن حوريات البحر يكنّ على هيئة نساء من الخصر إلى أعلى، وتكون بقية أجسادهن ذيول أسماك طويلة فضية خضراء. كن مشهورات بجمالهن الفاتن، بعيون مائية زرقاء عميقة وشعور ذهبية تتدلى حولهن بالكامل. وكان الكلام يدور حول أن حوريات البحر يحتفظن بجمالهن الرقيق لأنهن كن شابات بصورة دائمة. كان يتم اكتشافهن على الحيود المدية، أو الصخور، أو وهن يسبحن هنا وهناك فى المياه.

كانت حوريات البحر يحببن الغناء وغالبًا ما كانت الموسيقى البشرية تفتنهن. ومرارًا وتكرارًا كن يجلسن على الصخور ينظرن من مكان مرتفع على مواطنهن البحرية. وهناك يجلسن وهن يغنين بأصواتهن الساحرة، بينما يتشمسن فى الشمس أو يتمتعن بضوء القمر. كن يحدقن فى أنفسهن بزجاج (مرآة) وهن يصففن شعرهن الطويل بالمشط. ويقال إن مراياهن كانت من الذهب المتلألئ بمقابض من اللؤلؤ. وكانت بعض حوريات البحر تأتين إلى الشاطئ الوعر لتنشرن ملاءات كتانية بيضاء لتجف فى الشمس. وأخريات كن يعزفن الموسيقى على آلات الهارب الوترية والقيثارات. ويغنين باستمرار بأصوات ذات جمال ليس من هذه الدنيا.

وكان يُعتقد أن منازل حوريات البحر بجمال، وغموض، وفتنة هذه الكائنات نفسها. على أرضية المحيط كانت هناك قلاع تحت الماء من المرجان واللؤلؤ وكهوف من البللور. وكانت الحدائق المرصعة بالجواهر وغابات الأعشاب البحرية الضخمة فى كل مكان وكانت بيوت حوريات البحر فى غالبيتها العظمى مواطن ساحرة وفاتنة تحت الماء. وكان يُظن أن حوريات البحر يحتفظن بقطعان سحرية من ماشية وخراف البحر تحت الأمواج.

وللسفر بين العوامل الجوية المتقلبة والبقاء فى كل من الماء والهواء، احتاجت حوريات البحر إلى أشياء سحرية. أحيانًا شال أو خمار ينسدل على رؤوسهن وأكتافهن يسمح بالرحلة الخاصة من البحر إلى الأرض. وارتدت حوريات البحر الأيرلنديات اللائى يطلق عليهن Merrows قبعات

فـاتنة أُطلق عليـهـا cohulleen druith. وبعض حـوريات البـحـر فى جـزر هـبرديز كن يلبـسن أحـزمـة فضـيـة لتـعطى لهن القـدرة على العـودة إلى الأعـمـاق، وكـان للأخـريات قـوارير مـراهـم فى حـيـازتـهن، كن يدهن بها جلدهن. إذا حدث أن أصبحت حورية بحر مـحجوزة على الشاطئ بسبب التـغـيرات المدية المفـاجئة، تكون مرغمة غالبًا للعـيش مع البشـر الذين يسرقون أشياء ها السـحرية. ومثل النسـاء الفقمات المسـحورات، يمكن لحوريات البـحـر أن يعـشن حـياة مـفـيدة وقـائمة بالواجب على الشـاطئ، لكنهن يكن تواقـات دائمًا للعـودة إلى البحـر. وكـان ذلك ممكنًا فـقـط فى حالة العثور على الأشياء السحرية التى تعطى لهم القدرة على العودة.

وقصص حوريات البحر، بينما تتشابه من نواح كثير، تختلف قليلاً على كل شاطئ حيث يتم حكيها. ومثل الأشـيـاء السحرية التى تصـاحب حـوريات البـحـر المخـتلفات، من المعـتـقـد عنهن أيضًـا أن لديهن أسـمـاء مـخـتلفـة: ميـر مـايد Mere-Mayde، مـيـرو Merrow، ومـورجـان Morgan، ومـامـا ألو Mama Alo، ونينـجـيـو Ningyo لكـنـهن قلة من بين الحـوريات صاحبات الأسماء.

دموع حوريات البحر

يظن البـعض أن حـوريات البـحـر يأتين بالقـرب من البشـر فى البـحـر وعلى الشـاطئ للبـحث عن روح. وكـان المعـتـقد أن حـوريات البـحـر مـلائكة هابطين بدون أرواح. يتـم قص حكاية فى جزيرة أيونا Iona الإسكتلندية الصغيرة عن حورية بحر صـغيرة محبوبة كانت تأتى إلى شـاطئ الجزيرة

يوميًا لطلب روح. وكانت تُواجه دائمًا بالرفض. وكانت عاقبة ذلك أن عادت الحورية إلى البحر بالفعل، لكن خلفها على الجزيرة لا يزال من الممكن رؤية دموعها. حصى الشاطئ الأخضر الضارب إلى الرمادى الذى لا يوجد سوى فى شاطئ أيونا يطلق عليه اسم دموع حورية البحر.

كم هو ترحيب حزين!

يمسك طفل ذو خرق للبيع، مقدارًا وافرًا

من الحصى الذى أتلفته الأمواج، وهو يتوسل على الشاطئ؛

انطباعات شعرية لوليم ووردزووورث William Wordsworth عند وصوله إلى أيونا

خرافات حورية البحر

فيما يلى بعض المعتقدات التى تواصلت عبر السنوات فيما يخص حوريات البحر:

- تظهر حوريات البحر على الماء قبل العاصفة تمامًا.

- تلعب حوريات البحر مع الأسماك قبل هبوب العاصفة. وإذا قذفن بسمكة فى الهواء فى اتجاه بعيد عن السفينة، فإن ذلك يعنى أن طاقم السفينة سوف ينجو من العاصفة. وبالعكس، إذا قذفن بسمكة ناحية السفينة، فسوف تكون هناك حالة وفاة أو أكثر.

- ترقص حوريات البحر غالبًا على الأمواج توقعًا للانفعالات المثيرة التى تأتى بها العاصفة الهوجاء.

– تبكى حوريات البحر عندما يظل الطقس متحسنًا، وتغنى عندما تقترب العاصفة الشديدة.

– الناس الذين يساعدون حورية بحر محجوزة، أو يساعدون على تحريرها، يمكن مكافأتهم بصورة فاخرة. قد تكافئ حورية البحر الإحسان بمنح تحقيق ثلاث أمنيات، أو بالتحذير المبكر من العواصف فى البحر، أو بمنح معارفها عن الأدوية العشبية. وتهب أحيانًا هدايا خاصة؛ فى الغالبية الساحقة هدايا موسيقى، وعلاج، وتنبؤ بالمستقبل. وفى أوقات أخرى قد تكافئ إنسانا مفيدا بجواهر وثروات وافرة من حطام السفن. وبعض الحوريات اخترن شخصا ما، وفى بعض الحالات قرى بكاملها، للخدمات التى قدمها، ومنحوه ثروات وافرة وحظًا سعيداً.

– لو أن حورية بحر شعرت بمعاملة سيئة أو بأنها مرفوضة، يكون انتقامها سريعًا وبلا شفقة. فهى تلعن أولئك الذين يأذونها. ومعروف عنها أنها فى حالة الغضب الشديد تعصف بكل أسقف البيوت، وتغلق فتحة الميناء تمامًا بالرمال، وتغرق الناس، وتطلق أمواجًا قاتلة تضرب فقط الشخص الذى تستهدفه. ويقول البعض إنها جعلت بعض الناس مجانين تمامًا.

– يمكن لحوريات البحر أن يطلقن العواصف بالغناء، أو بربط شعرهن الطويل على هيئة عقدة.

– يمكن لحوريات البحر أن يطلقن الزوابع ويتحكمن فيها.

– يمكن لحوريات البحر أن يتنبأن بالمستقبل.

- عندما يرمى البحارة بأشياء - سكاكين عادة - على حورية بحر، إذا ظلت الحورية طافية فإنهم يعتبرون أنفسهم آمنين.

- فى الفلبين، يمكن ضمان الحظ الطيب إذا تم اقتلاع ثلاث شعرات ذهبية من رأس حورية بحر نائمة.

- يعتقد البحارة أن أغنية حورية البحر يمكن أن تفتنهم وإذا سمعوها سوف يتم سحبهم بواسطة قوة لا يمكن مقاومتها حتى يموتون فى البحر. ويخشى ربابنة السفن من سحب كل طقم السفينة ليتبع الحورية وعندئذ تتحطم السفينة على الصخور.

عندما تصعد حورية البحر إلى أعلى

بمشط ومرآة فى يدها:

"ها هو رخاء لك، يا رجلى الشاب المرح،

لأنك لن ترى أبداً أرضاً جافة!".

أنون Anon

٤

موشحات الشجاعة:

حكايات خيالية ورحلات عجيبة

السيد ستورمالونج

بحار بارع وشجاع وصادق

على طريقي، أنت تعصف بقوة

عريف ملاحين طيب قديم لطاقمه.

آى، أى، أى، أيها السيد ستورمالونج

نشيد بحارة

عندما يدوى بوق ضباب السفينة على الشاطئ، يكون قد حان الوقت الذى يحب فيه قباطنة البحر القدامى حكى الروايات المحبوكة. لكن على طول كاب كود Cape Cod، يكون القباطنة أكثر ميلاً إلى قص الحكايات الخيالية. لأنه كيف يمكن حكى قصة أخرى عن بحار "أعظم من الحياة" مثل السيد ستورمالونج؟ بالطريقة التى يحكونها، كان ستورمالونج ملاح بول بانيون Paul Bunyon .

تبدأ خرافة السيد ستورمالونج فى اليوم الذى ظهر فيه للمرة الأولى على رأس الأرض الداخلة فى البحر. "كان إعصار ١٨٢٦" هكذا يحكيها الناس فى تلك المناطق، "وجاءت موجة مد ضخمة تكسرت على شاطئ رأسنا المباركة الداخلة فى البحر".

ولوقت طويل بعد أن هدأ البحر، استمر الناس عبر الساحل يسمعون عويل توعد وولولات عميقة. ولأنهم يعرفون أن "الريح العاصفة قد أخمدت نفسها"، هرولوا إلى الشاطئ لرؤية نوع وحش البحر الذى قُضى عليه. كانت صرخة الكائن بالغة القوة حتى ظنوا أن حوتًا قاتلاً أو "أحد الجبارات العملاقة" كان فى انتظارهم. يمكنك أن تتخيل جيداً صدمتهم ممن حيَّاهم فى ذلك اليوم على الساحل. هناك، كان يجلس متشابكًا فى فوضى أعشاب بحرية، رضيع ولد ضخم. حسب البعض أن طوله أكثر من "ثلاث قامات"؛ هذا هو كلام البحر عن طول ثمانية عشر قدما. عندما بدأ بنشاط فى النحيب، أقسم كل الناس أنهم سمعوا بوق ضباب جزيرة نانتوكيت Nantucket يدوى.

لم يعرف أحد الظروف والأحداث المحيطة بالرضيع الولد، لكن بعض الناس يقولون إن ألفريد بالتوب ستورمالونج، كما تمت تسميته عندئذ مباشرة فى نفس المكان، يوجد البحر فى دمائه بالتأكيد. يصفه أهل المدن بأنه رضيع سعيد، نحت أول سن قضم له على عظمة حوت والذى نما بالوثبات والقفزات من رضاعاته الليلية فى حساء محار كاب كود. وعندما صرخ طلبًا للمزيد، تعجبت سفن على بعد عشرة أميال من الشاطئ من سبب إطلاق بوق الضباب لهذا الصوت العالى فى ليلة صافية.

ستورمالونج "الصغير" أو ستورمى "العاصف"[١١] كما عرف عنه بشكل ودود، كان يكبر فى كل يوم، إذا لم يكن فى كل ساعة. وعندما جاء

---

(١١) العاصف stormy : تُنطق ستورمى وهى كلمة ذات علاقة باسم ستورمالونج - المترجم.

وقت التحاقه بمدرسة، كان قد اقترب طوله من خمس قامات كاملة. فى كل يوم بعد الدراسة كان يعدو هابطًا إلى الشاطئ، حيث كان يهوى الحفر فى الرمال. تم تنبيه أطفال القرية للبقاء بعيداً عن قلاع الرمال التى يبنيها، حيث أحد الرفاق الصغار الفقراء "كان على وشك الغرق" فى الخندق المائى. كان على أبيه أن يغوص وأنقذه بالكاد. ونبه الآباء والأمهات أطفالهم أيضًا ألا يتبعوا ستورمى عندما يذهب للسباحة، لأنه ببساطة لدى هذا الولد القدرة على أن يسبح مبتعداً فى البحر من أجل قضاء فترة ما بعد الظهر بكاملها فى اللعب مع الحيتان بعيداً عن بساتين عنب مارثا Martha .

عندما وصل عمره إلى اثنى عشرة سنة، كان من الواضح أن ستورمى لم يعد يتوافق مع زملائه فى اللعب. لم يكن ذلك لأنهم لا يحبونه. الحقيقة أنهم كانوا يحبون صديقهم العملاق بكرمه وابتسامته الحميمية. لكن ستورمى كان قد تجاوز فى نموه مبنى المدرسة وكل بيوت كاب كود الصغيرة. أصبح ارتفاعه الآن ست قامات كاملة، وهو ما يصل إلى طول ستة وثلاثين قدمًا.

أدرك ستورمى أن الوقت قد حان لرؤية العالم الضخم الواسع، لذلك حزَّم حقائبه وغادر فى اتجاه مدينة بوسطن، لأنه كان قد سمع أن كل شيء فيها أكبر وأكثر تشامخًا. اتضح بالطبع أنها ليست سوى رواية أخرى فى كاب كود، لأن بيوت بوسطن كانت أحيانًا أصغر حتى من تلك الموجودة على رأس الأرض الداخلة فى البحر. وتصور ستورمى أن المكان الوحيد الذى سيكون مناسبًا له دائمًا هو هناك فى البحر الأزرق

الشاسع. كان ذلك هو العصر الذهبى لسايل Sail، فبدأ رحلته إلى المرفأ وسجل نفسه باعتباره غلامًا يعمل خادمًا فى السفينة على متن "سيدة البحر"، سفينة تجارية شراعية مهيبة ترتاد بحار الصين.

انجرفت السفينة بالكامل إلى الميمنة عندما مشى ستورمالونج على سطحها، وكان على الربان أن يتشبث بالدرابزين بأقصى جهد، حتى لا يُطرح مباشرة فى البحر. ومع خطوة أخرى، صححت السفينة من وضعها فى الماء وأدرك ستورمالونج أنه قد وجد ساقى البحر الخاصين به. وما أسرع ما رأى القبطان أن خادمه الغلام كان إضافة مهمة على متن السفينة. والسبب، أنه لم يعد على البحارة أن يتسلقوا الصوارى. يمكن لستورمالونج أن يصل إلى الصارى الرئيسى مباشرة ليعدل الشراع الذى يرفرف. استطاع هذا الغلام أن يفك حبلاً "كما لو أنه كان يفك رباط حذاء". وما أسرع ما أصبح الموظف الأول بعد الربان وتم توظيف خادم سفينة آخر. كان توبى يتيم فى نفس سن ستورمالونج. أصبح الاثنان على وفاق دون عائق - هذا كلام بحر لمجرد الافتخار - واستمرا هكذا ليصبحا صديقين مدى الحياة. وهكذا لم يكونا فى حاجة لأن يصيح كل منهما فى الآخر ليسمعا بعضهما، حيث كان ستورمالونج يحمل توبى غالبًا فى جيبه.

ذات يوم أوضح ستورمالونج لتوبى إلى أى مسافة يمكنه أن يرمى حربة. قذف بقبعة البحارة الخاصة به بعيداً فى الماء، وطعن قبعته وسحبها من جديد إلى السطح. "إفعل ذلك مرة ثانية" صاح توبى منفعلاً، "واجعلها تذهب أبعد من ذلك هذه المرة". فى المرة التاسعة، رمى

ستورمالونج بالحربة إلى مسافة ستين قامة بعيداً فى البحر، لكنها لم تطعن القبعة. هبطت بصوت مكتوم واستقرت عميقًا فى ظهر حوت أحدب. تدفق الماء عاليًا فى الهواء وفر الحوت فجأة. تشبث ستورمالونج بالحبل المثبت بالحربة بأقصى جهد، وتمسك توبى ببطانة سترة البحار الصوف التى يرتديها صديقه، وتشبث بقية الطاقم بقبعاتهم بينما كانت "سيدة البحر" تدخل فى تحد من أجل مصيرها.

سحب الحوت جسده بقوة وتلوى، غطس وجذب، فى محاولة لتحرير نفسه من الحبل. لم يدعه ستورمالونج يذهب وخاض الحوت مباشرة فى أمواج الأطلنطى التى يصل ارتفاعها إلى خمسين قدماً، انعطف "بحدة إلى الجنوب" عبر ساحل أمريكا الجنوبية، ثم اتخذ مساراً متعرجًا إلى إفريقيا ثم عاد ليعبر خلال مضيق ماجلان. وفى النهاية قفز ستورمالونج بالسفينة وهبط فوق ظهر الحوت الأحدب. ركب ذلك الحوت كما لو كان فى روديو(١٢) الجياد البرية وقاد نزهة زحافة ثلج نانتوكيت هذه، كما وصفها الكثيرون، إلى نهايتها.

حسنًا، لم يكن ذلك سوى حوت واحد فى الحكاية التى لا يزال الناس يحكونها. وأتى وقت دخل فيه ستورمالونج "فى مصارعة" مع أخطبوط عملاق. بدأ الأمر كله فى يوم صيف رائع عندما كانت "سيدة البحر" راسية فى المحيط العميق خارج الإنديز الغربية، بينما كان الطاقم يقوم ببعض الإصلاحات الأكثر ضرورية. فى ذلك الوقت، كان ستورمالونج قد

---

(١٢) الروديو rodeo: مسابقة أو معرض عام يتم فيه عرض المهارات مثل ركوب الجواد الأمريكى القزم غير المروض – المترجم.

أصبح عريف ملاحين، أو ضابط صف كما يطلق عليه الطاقم، وهو ما يعنى أنه كان رسميًا مسئولا عن الأشرعة، وترتيب حبال الصوارى، وأعمال المرساة.

ذات يوم، عندما صدرت الأوامر لرفع المرساة، تم تنفيذ الأمر لكن لم يتحرك شىء. لم يكن من الممكن زحزحة قضيب الرحوية(١٣) الذى يسحب سلسلة المرساة ولو بمقدار ضئيل. ظلت المرساة مثبتة بإحكام على أرضية المحيط. وحتى قوة ستورمالونج لم تغير الموقف. حدق إلى أسفل فى البحر الأخضر العميق، ثم أخبر الطاقم بأن الشىء الوحيد الذى يمكن فعله أن يغوص إلى أسفل ويلقى نظرة مباشرة عند المصدر الأصلى على هذه "المرساة العنيدة". تصور الجميع أن الأمر سيكون بسيطًا. لا شك فى أن المرساة قد حجزها نوع من الحواف المرجانية العالية.

وقف أفراد الطاقم فى الخلف، وهم يتشبثون بالصوارى والحبال حتى لا يصطدمون بشىء بينما يؤرجح رزاز ماء ستورمالونج الهائل السفينة. ثم نظروا من فوق جانب السفينة إلى الأعماق الخضراء. كان ستورمالونج خارج مجال الرؤية تحت سطح الماء وتصور الطاقم أنه سوف يعود بسرعة مع المرساة. كان قد طلب منهم ألا يقلقوا إذا غاص عميقًا، حيث يمكنه الاحتفاظ بأنفاسه تحت الماء لمدة أسبوع، إذا تطلب

(١٣) الرحوية capstan : أداة يستخدمها الملاحون لرفع المراسى - المترجم.

الأمر ذلك. لكن أفراد الطاقم نظروا بخوف لعدة دقائق، ثم لنصف ساعة، ثم أكثر من ساعة يتقلبون ولا إشارة تأتى من ستورمالونج.

كان هناك أمر خطير يحدث أسفل فى الأعماق الملحية، لأن ماء المحيط كان يلطم "سيدة البحر" بشدة ويأرجحها بعنف إلى الأمام وإلى الخلف وإلى أعلى وإلى أسفل. جاءت اصطدامات غريبة من أسفل البحر الهائج، صوت معركة نارية تبعها ما يبدو أنه صوت سوط. ظهر على السطح سائل أسود لزج، ثم اضطرب الماء إلى أعلى مثل ماء حمام يهبط إلى المصرف. عرف الطاقم أنها ليست حافة مرجانية مرتفعة هى التى تسبب المشاجرة وقلقوا تجاه سلامة صديقهم الوفى، ستورمالونج. "ما الذى قد يسبب كل هذا الجَلد الشديد؟" تساءلوا. البعض خمن أن هناك زلزالا، وآخرون اعتقدوا أنه ربما يكون هناك بركان ثار تحت الماء.

فى الواقع فإن حقيقة ما كان يحدث عندما وصل إلى القاع أنه وقع كما يلى. هناك، كان معلقًا على المرساة كأمر عادى أخطبوط عملاق. عندئذ عرف ستورمالونج أن هذا سيسبب مشاكل من كل نوع. إذا لم يفك قبضته عن المرساة، لن تسرع سفينته إلى أى مكان. لكن إذا تحرر هذا "المشاكس البحرى الأسود الضخم" سوف يسرع باحثًا عن وجبة على سطح السفينة. وأدرك ستورمالونج أن الطاقم سيكون لقمة سائغة لهذا الكائن اللزج ومجساته الثمانية الساحبة الماصة.

ولأنه كان من النوع المؤدب، شعر ستورمالونج بأن عليه أن يعطى لهذا المخلوق فرصة لحل المشاكل بطريقة مهذبة. "معذرة أيها السيد الأخطبوط العملاق، سيدى"، قال عريف الملاحين بطيب نفس. وبعد أن

تنحنح من حنجرته واصل كلامه قائلاً، "سأكون معترفًا بالجميل إلى حد كبير لو أنك رفعت مجساتك عن مرساتى". بالفعل لم يهتز رمش لهذا "المخلوق اللزج" بل أصبح متعلقًا بالمرساة بإحكام أكثر. كان ذلك نهاية لأدب وصبر ستورمالونج فيما يتعلق بالموقف.

وكما حكى ستورمالونج فيما بعد، "أمسكت بشدة بيد واحدة بذراع طويل ملتف، ورفعت كل واحد من مجساته الماصة عن المرساة. كان يصدر عنها صوت مثل انفجار بنادق هوائية. ثم انتقلت إلى الذراع الأخرى وقبل أن أدرك ما يحدث، كان الذراع الحر قد عاد من جديد. عندئذ أدركت أن المعركة لن تكون سهلة. لذلك سخرت من هذا الذميم، بأن أطلقت عليه أسماء مثل "الولد الرضيع" و"ذو الثمانية أذرع". وكان كريمًا واستاء منى، فعل ذلك حقًا، وانطلقت مجساته تجلدنى وهو يحاول أن يمسك بى من رقبتى ليقتلنى. تجنبته لما يقرب من ساعة، عندئذ انتزعنى وسحبنى بقوة إليه. عند ذلك أدركت أن علىَّ أن ألعب معه بقسوة. وبمجرد أن اقتربت منه، رفعت يدى أعلى أحد انبعاجات مجسه ودغدغت ذلك المخلوق بأقصى جهد للقضاء عليه. صاح "توقف"، لكننى دغدغته بلا رحمة حتى تسربت الدموع السوداء من عينيه وجعلت أذرعه تلين من الإرهاق. عندئذ قبضت على كل المجسات الثمانية، وربطتها فى عقدة كبيرة، ثم ركلت هذا الذميم مثل كرة قدم متجهة مباشرة إلى قارة أنتاركتيكا فى القطب الجنوبى".

عندما هدأ البحر وظهر ستورمالونج على السطح، تعجب أفراد الطاقم من شجاعة ضابطهم. قابلوه بعبارات التشجيع العفوية، لكن كل

ما كان على ستورمالونج أن يقوله من جانبه هو "هذا لا شىء الآن، أيها الرفاق، مجرد مباراة مصارعة مع أخطبوط وزنه طنين. هذا كل ما هنالك".

بعد أن أكل ستورمالونج وجبة صغيرة من نحو عشرين طائر عقعق بحرى، وإناء من يخنة السمك، وستة أوعية من البسكويت الجاف المملح، انسحب للحصول على غفوة يستحقها تمامًا. سحب الطاقم المرساة بقوة وغنوا لزميلهم المرهق نشيد البحارة للرحوية للهدهدة. وصاغوا كلمات من أجل ضابطهم القديم العزيز، السيد ستورمالونج. وهو نشيد لا يزال يُغنى فى أعلى البحار، والبحارة فقط هم الذين أضافوا عاقبة ذلك مقطعا شعريا آخر:

أوو ستورمى مات وذهب ليستريح،

على طريقى، أنت تعصف بقوة

من بين كل البحارين كان هو الأفضل.

آى، أى، أى، أيها السيد ستورمالونج.

سبب أن البحر مالح

فى يوم من الأيام، فى قرية بعيدة بجانب البحر، كان يعيش أخان. أحدهما كان ثريًا والآخر يعيش فى فقر مدقع. وفى مرات كثيرة كان على الأخ الفقير أن يطلب من الثرى المساعدة، لذلك لم يندهش الرجل الغنى عندما طرق أخوه من جديد رغم ذلك على بابه متأخرًا عشية عيد الميلاد.

ولأنه كان قد تم تحذيره من النداء فى زيارته السابقة، هبط الرجل الفقير على ركبتيه بسرعة وتوسل، "أخى العزيز، من أجل السماء وكل ما هو طيب، أتوسل إليك أن تساعدنى. ليس لدىَّ أنا وزوجتى أى طعام، ولا حتى كسرة، وسوف نتضور من الجوع فى عيد الميلاد هذا. أرجوك، وفر لنا ولو حتى قدحًا من الدقيق، حتى يكون لدينا شىء لعشاء عيد الميلاد".

بينما كان الأخ الثرى غنى بالمال، فإنه كان فى الحقيقة فقيرا فى الروح. كان بخيلاً، لا يجد أى مسرة فى مساعدة الآخرين. "آه، سوف أساعدك للمرة الأخيرة هذه، لكن عليك أن تعطينى وعداً".

"أى شىء، أى شىء، أرجوك فقط أعطنى بعض الطعام" صاح الأخ الفقير.

ابتسم الرجل الغنى واستمر فى كلامه ببطء، لمجرد أن يسخر من أخيه اليائس، "اذهب إذن إلى مبنى تدخين اللحوم وأحضر لنفسك قطعة لحم سمينة". ثم أضاف بتقزز، "عندما تغادر بيتى هذه المرة، اذهب مباشرة إلى الشيطان ولا تعد أبداً إلى هنا لتطلب أى شىء مرة أخرى!".

هرول الأخ الفقير إلى مبنى تدخين اللحم، وكانت هناك قطعة لحم سمينة غير معلقة بخطاف، ثم جرى خارجًا من البناية. وبدأ يسير فى ممر فى الغابة فى طريقه للعثور على الشيطان، لأنه كان رجلًا يحافظ على الوعد. لم يبتعد كثيراً عندما ظهر رجل مسن ضامر من خلف لفيف من الشجيرات. كان أخوه قد أتاح له أمسية طيبة وسأله الرفيق الغامض عن المكان الذى يتوجه إليه بقطعة اللحم المدخنة هذه. لم يسرف الأخ فى الكلام: "أنا ذاهب مباشرة إلى الشيطان إذا عرفت فقط أين يمكننى أن أجده".

"حسنًا"، ابتسم الرجل المسن، "أنت على الطريق الصحيح. توجه إلى أعلى فحسب، خلف تلك الأيكة، سوف ترى بيتًا فى ظلال شجرة البلوط. تقدم إلى الباب بشجاعة واطرق عليه. سوف تسمح لك بالدخول كائنات لها مظهر شيطانى. فقط لا تنخدع، إنهم مساعدو الشيطان، لكن إليك كيفية خداعهم".

أنصت الأخ الفقير بانتباه وتركيز إلى التعليمات الغريبة. "عندما تدخل فى النهاية"، قال الرجل المسن، "سوف يضربونك ضربًا مبرحًا من أجل قطعة اللحم المدخنة هذه، لأنهم يحبون اللحم المدخن جداً. لكن تذكر كلماتى. لا تبعها لهم إلا إذا أعطوك مطحنتهم. إنها موجودة خلف الباب".

ظن الأخ أنها ستكون مقايضة غير عادية. "مطحنة، هل قلت مطحنة؟".

"نعم" قال الرجل المسن. "إنها طاحونة يحتفظون بها خلف الباب. ولكن، سوف ترى، إنها ليست أية مطحنة إن لها صفات سحرية. عندما تكون قد ضمنت الطاحونة السحرية، عد بها وسوف أوضح لك كيفية عملها".

شكر الأخ الفقير الرجل المسن وتوجه إلى المكان. وكما سبق أن حذره تمامًا، قابلته عند الباب جماعة من العفاريت الصغيرة الشيطانية بأنوف طويلة متدلية، وكانوا جميعًا يقوقون ويسبون بتعويذات الشيطان. سال لعابهم وتنازعوا بقوة على اللحم المدخن ثم ساوموا عليه.

وبالفعل كانت المطحنة موجودة خلف الباب. تمت تسوية الصفقة الرابحة بسرعة، وبينما كانت العفاريت الصغيرة تنتزع قطعة اللحم، تركوا المطحنة للأخ الفقير. لم يكن أمامه سوى التساؤل حول ما إذا كان هذا الشيء ذي المظهر العادي كان يستحق أن يتخلى عن عشائه لعيد الميلاد. وبرغم ذلك، أسرع عائدًا إلى المكان في الغابة حيث كان قد قابل الرجل المسن.

"الآن ضعها هنا، وسوف أعلمك السحر"، قال الرجل المسن، "لأن هذه المطحنة يمكنها أن تطحن أي شيء تطلبه منها. أي شيء، أيها الرجل الطيب. والمهارة في تشغيلها ثم إيقافها. لكي تجعلها تعمل قل "اطحني، أيتها الطاحونة، اطحني"، لكن استمع بانتباه لما أقول لأن

إيقاف الطاحونة هو المهارة الحقيقية". وضع الرجل الضامر الطاحونة على جانبها وقال، "سوف تتوقف فقط عندما تستقر على هذا الوضع، ثم تقول "لا تطحنى بعد الآن، أيتها الطاحونة"، وسوف تفعل ذلك. ثم تقوم بتخزينها ومن الأفضل أن يكون ذلك بعيداً عن الأعين الفضولية".

مرة أخرى شكر الأخ الفقير الرجل المسن، وتوجه إلى بيته ليقدم الطاحونة الخارقة لزوجته. كانت تمشى فى مطبخ كوخهم البارد. انتظرت طوال اليوم، ولم يكن لديها حطب لإشعاله. وعندما دخل زوجها ومعه طاحونة قديمة ولم يكن معه طعام، انفجرت فى البكاء. "انتظرت طول اليوم من أجل هذا" انتحبت. "باسم السماء وضح لى سبب مجيئك إلى البيت دون شىء لعشاء عيد الميلاد".

وضع زوجها المطحنة على المائدة. "والآن سأطحن وجبة أحلامك"، قال. راقبته مفتونة، لأنه بمجرد أن نطق بكلمات "اطحنى، أيتها الطاحونة، اطحنى. اطحنى عشائنا لعيد الميلاد بكل الزخرفات"، بدأ مقبض المطحنة يعمل بنفسه ومن قمة المطحنة خرجت فطيرة بطاطا حلوة، وصلصة توت برى، وإوزة مشوية، وحلوى البرقوق. وبعد ذلك جاءت شمعتان مشتعلتان، ومناديل مائدة، ونبيذ وكئوس، ويا للعجب.. نار فى المدفأة لجعل كل شىء مرحا. "عجبًا" كان كل ما استطاعت قوله زوجته السعيدة. وعندما رأى رضاها، وضع الزوج الطاحونة على جنبها ونطق بالأمر "لا تطحنى بعد الآن، أيتها الطاحونة". وتوقفت الطاحونة عن الطحن.

خلال الأعياد قرر الرجل وزوجته تسلية كل أصدقائهما ودعوا الأخ الثرى إلى كوخهما. كان مرتبكًا أمام تحول الحظ المفاجئ لأخيه الفقير وسأل، "أخبرنى كيف حدث أنه لم يكن لديك فى عشية عيد الميلاد "ولا حتى كسرة" والآن فجأة يبدو ألا حدود لبيت مؤونتك". لم يكن لدى الأخ الفقير أية خطة لأن يريه المطحنة، لكن مع انقضاء الليل، أصبح الأخ الثرى أكثر فأكثر إصرارًا. فى النهاية، عندما غادر كل الجيران المكان، أخرج الأخ الفقير المطحنة وأراها لأخيه.

"لطالما ساعدتك"، بدأ الأخ الثرى الجشع الكلام. "لذلك أظن أنه من العدل على الأقل أن تسمح لى بالحصول على هذه المطحنة".

ومرة أخرى، بعد الكثير من الاعتراضات، لأن الأخ الأكثر عطفًا وتم عقد صفقة: سيحتفظ الأخ الفقير بالطاحونة إلى ما بعد الحصاد، ثم يبيعها إلى أخيه مقابل ثلاثمائة دولار.

استغل الأخ الفقير وقته بشكل جيد مع الطاحونة وحصل على إمدادات كافية لعدة سنوات. كان معتادًا على العيش فى الفقر وبدت هذه الكمية من الثروة ورغد العيش أكثر من كافية. مع نهاية الحصاد، جاء الأخ الثرى طالبًا الطاحونة، وأعطى أخيه ثلاثمائة دولار. وبعد أن عرف كيفية تشغيلها، طلب الإذن بالانصراف وغادر المكان. أسرع بالعودة إلى بيته قبل أن يستطيع أخوه إيقافه، لكنه وقد فعل ذلك لم يكن قد تعلم سر كيفية إيقاف الطاحونة.

فى الصباح التالى، أحضر الأخ الثرى الطاحونة. وطلب من زوجته وخدمه أن يخرجوا طوال النهار، لأن لديه وليمة مدهشة سوف تكون جاهزة من أجلهم عند عودتهم. عندما غادروا البيت، فكر فى كل ما عليه تجهيزه بالمطحنة. "اطحنى، أيتها الطاحونة، اطحنى" بدأ كلامه. "جهزى لنا حساء كثيفًا مغذيًا من سمك الرنكة واللبن".

بدأت الطاحونة فوراً فى إصدار أزيز وفى الطحن. وخرج منها ملء مغارف من الحساء السمكى الأبيض وانسكبت مباشرة فى الطاسات الفخارية فوق المائدة. "توقفى، أيتها الطاحونة، توقفى. هذا جيد جداً بالنسبة لمبتدئين"، قال الرجل. لكن الطاحونة ظلت تطحن. وما أسرع ما أصبح مفرش المائدة مبتلاً بالحساء وفى حالة فوضى وانسكب الحساء المصنوع من المرق على الأرضية. "توقفى، أيتها الطاحونة، توقفى الآن، أقول لك" قال الرجل، وقد بدأ يشعر بالهيجان. زادت الطاحونة فى سرعتها.

عندئذ ارتفع الحساء فتجاوز رسغى قدميه ففتح الرجل بابه الأمامى. "كفى، كفى! توقفى الآن، آمرك بذلك"، قال بقلق، لكن الحساء انسكب بسرعة أكبر وتم دفع الرجل خارج الباب إلى الساحة الخارجية. أبحرت الطاحونة فى النهر اللبنى الساخن بينما كان الرجل يجرى أمامها، محاولًا فى يأس التفكير فى أوامر أخرى قد توقفها عن الطحن: "كفى عن ذلك! اهدئى! هذا يكفى! تعطلى! امتنعى عن ذلك! توقفى!". ولم ينجح كل ذلك.

جرى مع المرق المغلى الذى أحرق عقبى قدميه. نظر سكان المدينة مندهشين وهو يتزحلق على شظايا الرنكة اللامعة الناعمة، ثم وهو ينزلق على برك اللبن الصغيرة. وأخيراً وصل إلى كوخ أخيه. "خذ طاحونتك، أتوسل إليك. اجعلها تتوقف قبل أن نغرق جميعًا". استعاد الأخ الفقير الطاحونة، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن حصل على ثلاثمائة دولار أخرى.

كان سعيداً باستعادة المطحنة، لأنه فكر حينئذ فى كل التغيرات المدهشة التى سيجلبها إلى بيته. كل يوم كان كوخه يصبح أكثر إثارة للذهول، حتى قوالب الذهب لبناء الحوائط كانت المطحنة تطحنه. كان بيت الأخ يلمع فى الشمس ويمكن رؤيته وهو يومض من مسافة بعيدة عند البحر.

أصبح بيت الأخ الفقير موضوع حديث سكان الريف، وجاء الناس من بعيد ومن قريب لرؤيته. وذات ليلة لاحظ قبطان بحر شيئا ذهبيا يتلألأ فى ضوء القمر، ورتب نفسه للرسو لمجرد رؤية ما جذب نظره وهو فى الماء. وبينما كان يسير فى اتجاه الكوخ المتوهج، أخبره سكان المدينة بالمطحنة السحرية التى يمكنها طحن أى شىء يرغب فيه المرء. "تخيل"، فكر القبطان المسن الخبيث،"كيف يمكننى طحن ملحى الخاص، والملح النادر لذيذ المذاق للملك، ولا أسافر أبدًا فى البحار الخطيرة البعيدة مرة أخرى". وقف فى حلم يقظة أمام الكوخ الذهبى، وهو يفكر فى الثروة العظيمة التى يمكنه جمعها بامتلاك هذه المجرشة.

"ادخل"، نادى الأخ الفقير، "وأرح عظامك المجهدة، يا صديقى". ووضع إناء شاى، ثم عرض الطاحونة على قبطان البحر.

"أتوسل إليك أن تقول لى كيف تعمل"، استعطفه القبطان الفضولى. أخبره الأخ بالكلمات السحرية لجعلها تطحن. وتحدث الرجلان وفى نهاية الأمسية دعى الأخ القبطان لكى يستريح عنده تلك الليلة. وهذا بالضبط ما كان يتمناه القبطان، لأنه فى منتصف الليل عندما كان البيت كله ساكنًا وكل القرية نائمة، سرق القبطان المجرشة وأسرع مهرولاً إلى سفينته. وأبحر فى هدوء فى ضوء البدر ولم يتوقف إلا عند انبلاج الفجر، بعد أن أصبح آمنًا على مسافة بعيدة فى البحر.

وضع المجرشة فى عنبر السفينة وأمرها: "اطحنى، أيتها الطاحونة، اطحنى. املئى سفينتى بأفضل أنواع الملح". لم تمر لحظة حتى كان الملح الأبيض يخرج فى رذاذ من الطاحونة. امتلأ عنبر السفينة بالملح حتى حافته ورفع القبطان الطاحونة وطلب منها أن تتوقف. ظلت تبعثر الملح هنا وهناك. وضعها على سطح المركب وأمرها بأن تتوقف عن الطحن. لكن ما أسرع ما بدا السطح مثل ساحل رملى أبيض. كانت هناك كومات من الملح المتلألئ فوق سطح السفينة بكامله، وقد دفنت عجلة القيادة وتسلقت إلى الصوارى.

حاول القبطان أن يغرف الملح، لكنه تغربل من خلال أصابعه. "توقفى! توقفى!" جأر وهو يعدو إلى أعلى حيث مأوى أفراد الطاقم بحثًا عن الأمان، لكن الأنين والصرير المستمر فى أسفل غطى على كلماته. وفى ذلك الوقت، كانت السفينة قد أصبحت ثقيلة بسبب الكميات الضخمة من الملح. وظلت الطاحونة تطحن.

أخيراً، بعويل شديد، تحطمت السفينة إلى نصفين بسبب الوزن الثقيل للملح وغرقت فى البحر. راقب القبطان حمولته الثمينة وهى تذوب مثل السكر. وخلال دقيقة كانت السفية وقبطانها قد اختفيا فى الأعماق تحت سطح البحر. لكن الطاحونة ظلت تطحن.

وحتى الوقت الراهن، لا تزال المجرشة موضوعة على أرضية المحيط، وهى تطحن إلى الأبد تبعًا لآخر أمر تلقته. وهذا هو سبب أن البحر مالح.

سفينة العالم

منذ وقت بعيد عندما كان الناس لا يزالون يعتقدون أن الأرض مسطحة، قدم شخص ما نظرية أكثر إثارة للفضول حول الأعمال الحقيقية لهذا الكوكب. ماذا لو أن الأرض الأم كانت فى الواقع سفينة ضخمة؟ "افترض فقط"، تخيل شخص ما، "لو أن ما نعتقد أنه جبال كان فى الحقيقة صوارى عملاقة والأرض التى نسير عليها كانت سطحها الرئيسى". وهكذا، بمرور الوقت، اتخذت هذه الأساطير الضخمة شكلاً فى الحكى على هيئة حكايات خيالية.

كانت سفينة العالم هذه كبيرة حتى إن البحارة الذين بدأوا فى الصعود إلى ملجأ البحارة كفتية مراهقين هبطوا بعد ذلك بشعر أبيض طويل ولحى بيضاء. كانت الحاجة ماسة لمجموعات كبيرة من خيول العمل لكى تحمل أعضاء الطاقم من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها. إذا تركوا المؤخرة فى الفجر، سيصل بهم العدو السريع إلى هناك مع ظهور القمر فى الأسبوع التالى.

يحكى البحارة الفرنسيون حكايات خيالية عن سفينة عملاقة أخرى يطلقون عليها اسم Chasse Foudre، وهو يعنى "البرق المطارِد". كانت هائلة جداً، واستغرقت سبع سنوات كاملة لتثبيتها بمسامير قصيرة

عريضة الرأس، لأن صاريها الرئيسى وحده كان أضخم من أى صارى فى أوروبا، واحتاج إلى أشجار غابة كاملة لصناعته. ولم تكن الراية متعددة الألوان المرتفعة فى أعلاه سوى قوس قزح حقيقى.

فى سنواته الأخيرة، كان لدى السيد ستورمالونج سفينة عملاقة لها صفات مماثلة للبرق المطارد. وكان اسمهما توسكارورا Tuscarora .

كانت إحدى المشاكل الكبرى لسفينة بهذا الارتفاع الضخم أنها تلتصق بالسحب، أو تضرب بقمتها القمر الهلال. وتم تزويد الصوارى العلوية بمفصلات حتى لا تصطدم بالنجوم البعيدة عن كوكباتها[١٤]، وتم تبطين قمم الصوارى نفسها بمواد ناعمة حتى لا تثقب فجوات فى السماء. وربما تصبح مثل هذه الأحداث عادية عندما تكون حكاية خيالية إلى هذا الحد!

(١٤) الكوكبة constellation: تشكُّل اعتباطى أو كيفى للنجوم يُلاحظ كشكل وخاصة واحدة من ٨٨ مجموعة مميزة - المترجم.

قيصر البحر

فى الأسفل فى الأعماق البعيدة فى البحر الروسى كان يعيش ملك ماء، وكان اللقب الملكى لنبتون Neptune رب البحر الشمالى هو قيصر البحر. وتم حكى القصص عن هذا القيصر الشجاع الضاحك. قال بعض البحارة إنه ظهر لهم فى البحر، وقال آخرون إن القيصر الجبار يمكن أنه يبدل فى شكله ويتحرك على هيئة ماء لكى يظهر فى أى نهر أو بحيرة فى روسيا. ورغم المزاعم الكثيرة حول رؤيته، كان لإنسان واحد امتياز تسلية القيصر. ورغم اضطرابه وقوة البحر، كان القيصر روحًا تحب الموسيقى الجيدة وفرصة أن يُتاح لها الرقص. وعندما كان يرقص، كان المحيط نفسه يهتاج. وهذه هى قصة كيف استطاع رجل اسمه سادكو أن يعزف موسيقى لقيصر البحر.

منذ زمن بعيد فى روسيا، فى مدينة نوفجورود Novgorod، كان رجل اسمه سادكو يعزف الموسيقى من أجل وجبة عشاء. كان يعزف على جاسلى gusli، وهى آلة موسيقية تشبه كثيراً قيثارة الحضن، كان أبوه قد صنعها من خشب الإسفندان. كان الأب فقيراً وكانت الجاسلى هى

كل ما لديه ليتركه لابنه عند موته. لم تكن تساوى الكثير من المال، لكن بين يدى سادكو الموهوبتين، كانت تعزف موسيقى رائعة. كان الناس يطلبون من سادكو أن يعزف فى الولائم وحفلات الزواج، وهم يرمون عملات الكوبك فى قبعته ويرقصون الفالس على موسيقاه السارة. وظل عازف الموسيقى يعيش بالكاد ليحصل حتى على حياة مقتصدة تماماً.

كانت أقصى سعادة لسادكو تأتيه مع نهاية اليوم، عندما يجلس بمفرده فى هدوء ضفاف بحيرة إلمين Ilmen، خارج المدينة تماماً. هنا يعزف الأغانى التى يميل إليها قلبه. وينصت للمياه التى ترتطم برفق ويؤلف إيقاعات موسيقية على آلته لكى ترقص عليها أمواج البحيرة الصغيرة. وبينما كان يعزف، ظن أنه سمع ضحكة مرحة، تدل على عاطفة متقدة وتترقرق مثل الإيقاعات الموسيقية للمياه. توقف عن العزف ونظر فى الماء، حيث كان البدر يتلألأ. وعندما لمح صفاً طويلاً من الصبايا الراقصات، تساءل ما إذا كانت هى روسالكاس Rusalkas؛ أرواح البحيرة فى الحكايات الخرافية التى كان قد سمعها وهو صبى صغير. وفى لحظة تلاشت ثم، فى وسط ضوء القمر المنعكس، ظهر أكثر الوجوه جمالاً التى رآها سادكو من قبل. كان وجه امرأة شابة لها شعر طويل ذهبى، وتضع عصابة رأس مرصعة بالجواهر والفضة والصدف البحرى. كانت عيناها بلون اللازورد مثل بحر الصيف، ووجهها أبيض مثل اللآلئ. عندئذ ابتسمت وتماوجت المياه مع جلجلة الضحكات. "كنا نرقص، أيها الموسيقى الشاب"، قالت "موسيقاك كانت ترفه عنا فى أروقة قصرنا تحت البحر. ووالدنا، قيصر البحر الجبار، مسرور جداً ويرغب

فى مقابلة الإنسان الذى يستطيع عزف مثل هذه الأغانى. استمر فى العزف، أيها الموسيقى الطيب، وسوف يخرج والدنا من البحيرة لمقابلتك".

راقب سادكو الوجه الجميل وهو يختفى فى مياه ضوء القمر ذات الوميض. رفع آلة الجاسلى وعزف أغنية شجاعة مهيبة، لأنه لم يكن من المتاح مقابلة شخصية ملكية كل يوم، حتى لو أتى هذا القيصر من تحت البحر. ومع تسارع الموسيقى، بدأت المياه البعيدة فى البحيرة تتحرك مضطربة. ونثرت الموجات الضخمة الرشرشات حول الصخور حيث يجلس سادكو، وصعد إلى أعلى أعظم شخصية رآها فى حياته.

خطا القيصر ضخم الجسم خطوات عملاقة سريعة فى البحيرة متجهًا نحو سادكو. وكان الماء يتلألأ على شعره الأخضر الطويل ويتقاطر من لحيته المضطربة من العشب البحرى والطحالب. كان يضع تاجًا من ذهب المحيط، بقطع غليظة من الكهرمان مغروسة فيه. حرك القيصر رأسه إلى الخلف، بصوت فى قوة صوت المحيط نفسه، وأطلق ضحكة سخية. "يا سادكو الطيب، يا موسيقى نوفجورود"، بدأ كلامه، "لقد فتنت موسيقاك كل مملكتى تحت الماء. رقصنا وغنينا طول عزفك لألحانك. لم يحدث أن كان هناك أبدًا مثل هذه الاحتفالات تحت الأمواج. ومن أجل ذلك، أنا مسرور جدًا. ونرغب أنا وبناتى الثلاثة عشر أن نهبك هدية شكر لك، لأن موسيقاك وهبت لنا سعادة غامرة".

أدرك سادكو أنه أمام ترحيب شديد ولم يجد الكلمات التى يمكنه أن ينطق بها. وبدلاً من ذلك عزف لحنًا رقيقًا على آلته. ضحك قيصر البحر ضحكة أخرى صاخبة ووثبت الأمواج، ثم هدأت وهو يتكلم: "آه، سادكو

العزيز. أنا أعرف أنك تجاهد لتعيش. لكننى أضمن لك أنك بمجرد إلقائك لشبكتك فى الماء غداً، وعلى أثر ذلك، سوف تحصل على ثروة أكبر مما حلمت بها فى أى وقت. تلك هى هديتنا مقابل هديتك الموسيقية لنا".
عندئذ غاص القيصر تحت المياه وأصبحت البحيرة كلها ساكنة تماماً.

فى الصباح التالى أسرع سادكو إلى البحيرة ومعه آلته الموسيقية تحت ذراعه ومعه شبكة الصيد يحملها فوق كتفه. ألقى الشبكة فى البحيرة وهو يفكر فى كلمات القيصر. "هل أجرؤ على الحلم بمثل هذه الثروة ؟ نعم، لقد تلقيت وعداً بذلك"، قال لنفسه. سحب الشبكة بقوة وكان فيها كنوز من المحيط أكثر جمالاً مما قد تحتوى عليه أى خزانة بحر. جذب قطع الذهب بحجم سمكة القد، وفتح صدف المحار ليحدق فى اللؤلؤ المتألق. كان جمال الصيد وليمة لعينيه، لأن بريق الأحمر والأزرق والأخضر والذهب كان متشكلا تماماً على هيئة ياقوت، وزمرد، وكهرمان. وتلألأت العملات الفضية والذهبية من الكنز الغريق فى خليط بحرى مبهر. حزم سادكو شبكته ومعها ثروته البحرية وجلس على الضفة ليعزف أغنية شكر للقيصر. تماوجت المياه وظن سادكو أنه سمع كورال أصوات بعيدة يغنى مع موسيقاه.

فى اليوم التالى عاد سادكو وعندما سحب شبكته ضاعف ثروته. ومرة أخرى عزف أغنية عرفاناً بجميل القيصر ونعمته. وفى كل يوم تنامت الثروات وعاد سادكو إلى نوفجورود رجلاً بالغ الثراء.

فوراً اشترى اثنى عشر من أكبر السفن وأكثرها جودة فى الميناء، وزود كل المراكب بالرجال، وأبحر عبر البحر ليجمع ثروات أكبر باعتباره

تاجراً. وعند العودة من أول رحلة له، بنى قصراً فى المدينة وطلب من الصبية الجميلة لوباشا أن تكون زوجته. وكانا سيتزوجان عند عودته مرة أخرى من البحر. كانت هذه الرحلة الثانية عبر الكثير من محيطات العالم واستغرقت عدة سنوات، لكن لوباشا كانت قد قالت بالفعل إنها سوف تنتظر عودة سادكو.

بعد عدة سنوات من السفر والحصول على ثروة ضخمة فى كل مرة، أصبح معتاداً على العيش بثروة ضخمة دائمة. فى الحقيقة، أصبح يتوقعها. وكان يشعر غالبًا مع حلول الليل بأنه مرهق ومكتف من الوجبات المطبوخة الشهية وتقديم أفضل فودكا. وحيث كان ذات مرة قد أنهى يومه بالعزف على آلته فى الخارج عند المياه من أجل قيصر البحر، لم يزعج نفسه عندئذ بمشية رشيقة قصيرة إلى سطح السفينة. ونسى تماماً بالتدريج هذا الطقس الليلى وعزف موسيقاه. كانت آلته الموسيقية معلقة صامتة على جدار الكابينة.

ثم حدث ذات يوم، بينما الريح نشيطة، أن كانت سفينة سادكو متوقفة تماماً. ومرت مراكب أخرى والريح فى أشرعتها، لكن سادكو وطاقمه جلسوا هادئين. وتوقفت الأشرعة فى السفينة الضخمة رخوة، بينما كل ما كان حولها فى البحر هادئ. لم تستطع المركب حتى أن تتمايل فى الماء. كان الأمر كما لو أن يداً ضخمة أمسكت بالسفينة بإحكام فى مكانها وكانت الريح تمسك نفسها.

نظر البحارة حولهم بخوف. "بالتأكيد هذا من أعمال قيصر البحر العظيم الجبار" صاح أحدهم فى ذعر. "لقد سمعت أنه يكون وحشيًا

عندما يغضب. لابد أن أحدنا قد ارتكب خطأ في حقه". حدقت كل العيون حولها. ظن كل بحار أن شيئًا ما فعله قد يكون هو سبب العقاب الذى أوقعه القيصر بهم. "لقد صفرت فوق السفينة وأنا أقوم بالحراسة فى منتصف الليل"، اعترف أحدهم. أضاف آخر، "لا، لقد كنت أنا. قلبت زوجتى الحوض رأسًا على عقب فى نفس الصباح الذى أبحرنا فيه. كان يوم جمعة، هذا هو الأمر. آه، يا أصدقائى، كان علىَّ أن أخبركم بذلك". وفى النهاية رفع آخر صوته قائلاً، "أنا متأكد أننى تسببت فى هذا المصير للسفينة لأننى فى صباح رحيلنا تمامًا توقفت للكلام مع مزارع، وحدث أننا تكلمنا عن الأرانب البرية". أسكته كل أفراد الطاقم حتى لايستخدم كلمة محرمة على ظهر السفينة. لكن لا أهمية لها الآن وقد أصبح القيصر غاضبًا بالفعل.

طوال ذلك الوقت كان سادكو منكس الرأس. كان يعرف سبب الغضب الشديد للقيصر. أسرع إلى كابينته وعاد بآلة الجاسلى إلى سطح السفينة. "أيها الرجال الطيبون"، بدأ التاجر العادل والأمين، "أنا من يريده القيصر. لأنه كان علىَّ أن أشكر القيصر على الثروة الطيبة التى وهبها لى كل هذه السنوات، والرفاهية التى نسيت أن أدفع له ما يستحقه عنها لمدة طويلة حتى الآن". قبل أن يستطيع رجاله أيقافه، قفز سادكو، ومعه آلته الموسيقية مختبئة تحت ذراعه، من فوق السفينة إلى الأعماق الزرقاء لبحر قزوين.

للحظة، ظل سادكو طافيًا وهو ممسك بالجاسلى. ثم بينما كان رجاله يراقبون المشهد فى رعب، ظهرت على السطح يد خضراء ضخمة،

وانتزعت سادكو بإحكام بقبضة شديدة. تم سحب القبطان الشجاع إلى أسفل فى البحر بينما كان رجاله يبتهلون من أجل نجاته.

فى البداية أوقف سادكو تنفسه، خوفًا من أن يغرق. لكن عندما لهث للحصول على هواء اندهش عندما وجد أن الماء من حوله كان مثل الهواء. غطس أعمق فأعمق حتى وصل إلى أرضية المحيط. وهناك وجد أمامه قصراً رائعًا أبيض اللون من المرجان، بأعمدة بحر خضراء مرصعة بالصدف. كل نافذة وباب كان مزخرفًا بالذهب. سار فى بساتين نباتات سرخس البحر وأبسطة مرجانية فاخرة. وعلى كل جانب من باب القصر كانت أسماك عملاقة بخوذات فضية تقف حارسة. فتحت الأبواب وقادته إلى القاعة الملكية لقيصر البحر.

وفى الداخل كان المكان فضلاً عن ذلك أكثر إثارة للذهول. كانت الردهة تشع بالأحجار والجواهر اللامعة، والمزيد من الفضة والذهب، كنوز من السفن المتحطمة التى غرقت فى قاع البحر منذ قرون مضت. وهناك على عرش بلورى متلألئ كان القيصر، يبدو شرسًا ومنزعجًا من وجود سادكو. "أنت" زأر، "تجرؤ على نسيان مصدر ثروتك". كان سادكو يعرف الحقيقة فى كلمات القيصر وخفض رأسه فى خجل. تحرك القيصر واستمر فى كلامه، بنغمة أرق قليلاً، "كم هذا محزن أيضًا، لقد نسيت موهبة موسيقية ثمينة جداً".

وفى تغير مفاجئ فى النغمة، زأر القيصر فجأة: "آمرك، يا سادكو، أن تعزف كما لم تعزف أبداً من قبل. لقد انتظرنا أغانيك البحرية الجميلة مدة طويلة. اعزف الآن".

رفع سادكو الجاسلى وعزف على الفور. وتحت الماء بدت النغمات أكثر عذوبة، وتردد صدى أصوات الأوتار فى كل مكان من خلال الردهة البلورية الضخمة. تنهد القيصر بسعادة وربت بأصابعه الضخمة المغطاة بالحراشف برقة مع نبض لحن البحر. وعندما انتهت الأغنية تكلم القيصر: "يا سادكو الطيب، أريد أن أستمع دائمًا إلى موسيقاك. وأريدك أن تعيش دائمًا هنا تحت البحر. كل بناتى مغرمات جدًا بك حتى إن أى واحدة منهن سوف تسعد بأن تكون زوجة لك. أرجوك اختر إحدى بناتى كزوجة لك وسوف تعيش سعيدًا فى قصرى البحرى".

لم يجرؤ سادكو على رفض حسن ضيافة القيصر، لأنه عرف شدة غضبه. ورغم أنه أحب لوباشا من كل قلبه، لم يجد بديلاً سوى اختيار عروسة بحر. طفت بنات القيصر الثلاثة عشرة أمامه فى ثيابهن البيضاء الريشية الفضفاضة. بدوْن رشيقات الحركة مثل البجع، وبالفعل كن يظهرن غالبًا بهذا الشكل فوق المياه. وجد سادكو أن كلا منهن جميلة وتبدو ذات طبيعة عذبة. لم يستطع أن يختار حتى ظهرت آخر أميرات البحر. "أين رأيت هذا الشعر الذهبى من قبل؟" تساءل. ثم تذكر صبية الماء التى ظهرت فى البحيرة منذ سنوات مضت. وقرر أن يتزوجها.

"فلتبدأ الاحتفالات، لأن سادكو سوف يتزوج الأميرة فولكوفا"، أعلن القيصر، وطلب من سادكو أن يعزف أفضل ما لديه من موسيقى الرقص. انطلقت الحاشية كلها فى دوامة عظيمة من المرح. وفى كل مكان حولهم بدأت الكائنات البحرية فى الدوران بسرعة والغوص إلى مصدر الموسيقى، وهى تعوم بين الحاشية المجتمعة وحولها. ورقصت الأميرات

فى دائرة حول أختهن فولكوفا والقيصر، الذى كان يصفق بيديه فى البداية، وبدأ ينقر بمقدمة حوافره على أرضية المحيط.

راقب سادكو سمكة فرس بحر صغيرة تثب مع الموسيقى بمرح شديد حتى إنها ارتفعت مباشرة إلى أعلى حيث البرج الصغير للقلعة. كان يمكن لسادكو أن يرى خلال سقف البحر الزجاجى ونظراته معلقة بفرس البحر الشقية وهى تقترب من السطح. وهناك رأى مشهداً مرعباً، حيث كان سطح البحر فوقه هائجًا وعاصفًا. كانت السفن تغرق من الأمواج العملاقة المتصادمة، بينما اصطدمت أخرى بالصخور. كان البحر كله فى فوضى عارمة بسبب الرقص تحته. ولا بد أن طاقمه الخاص الخائف قد غرق، لذلك توقف سادكو عن العزف ومزق كل أوتار الجاسلى.

توقف الرقص فجأة وحملق القيصر فى غضب. "لن أستخدمك بعد الآن"، قال. "أنا سعيد لأنك لم تتزوج ابنتى على الأقل. سادكو، اذهب بعيداً". وعند ذلك، وجد سادكو نفسه وقد صعد بسرعة إلى السطح. ورجال طاقمه، وقد استطاعوا فى النهاية التقاط أنفاسهم بعد هدوء البحر الغاضب، رأوا قبطانهم يطفو على الماء. انتزعوه إلى خارج البحر وأبحروا عائدين نحو نوفجورود.

مرت اثنتا عشرة سنة كاملة منذ رأى سادكو لوباشا، لكن عندما تقابلاً من جديد عرفا أنهما سيكونان سعيدين معًا دائمًا. وعن طيب نفس تام وعد سادكو عروسته بألا يبحر فى البحار مرة أخرى. انتقلا إلى قصرهما لكنهما كانا يقضيان وقتًا طويلاً فى كوخهما الصغير عند بحيرة إلمين. وهناك، وفى الليالى القمرية المضيئة، كان الزوجان يهبطان

إلى حافة الماء، حيث يعزف سادكو ألحانًا جميلة مرة أخرى على آلته الموسيقية.

فى وقت متأخر فى إحدى الأمسيات ظنا أنهما سمعا ضحكة مترقرقة بعيداً فى الماء. تذكر سادكو وعزف الأغنية التى كان قد ألفها تكريمًا لأميرة البحر. ثم أنصت للكلمات فى تموجات المياه، كلمات هو وحده الذى يستطيع تفسيرها: "قلبى يفيض بالبهجة لسعادتك، أيها الموسيقى". وعزف من جديد.

تأثرت مشاعر فولكوفا جداً بموسيقاه حتى إنها تبعت آثارها العذبة عائدة إلى نوفجورود، ونمت فى رحلاتها لتصبح نهر فولكوف. ومن هناك تتدفق بسهولة إلى بحر قزوين.

وفى الأعماق السفلية السحيقة فى القصر العظيم فى المحيط، كان أبوها، القيصر، سعيد للغاية، لأنه يستطيع سماع موسيقى سادكو الفاتنة فوقه. كل الأمور كانت طيبة للجميع، لكن بين الحين والآخر، عندما يتموج البحر وتتصادم الموجات المتلاطمة هائجة، كان يُقال إن قيصر البحر لا يمكنه أن يمتنع عن التربيت بأطراف حوافره العملاقة مع إيقاع موسقى سادكو.

أوديسيوس والمخاطر الثلاثة

أغنيتهم هى الموت وتجعل التدمير سارًا.

من الأوديسة لألكسندر بوب Alexander Pope

كان أوديسيوس رجلًا شابًا عندما انطلق ليحارب مع الإغريق فى حرب طروادة العظيمة. لم يكن يتصور عندما ترك زوجته وابنه الصغير مدى طول وصعوبة الرحلة التى شرع فيها. استغرقت المعركة مع طروادة فى حد ذاتها تسع سنوات. ترك طروادة منتصراً، لكن رحلة عودته إلى الوطن فى إثاكا لم تكن سهلة، شرع فى بداية مشئومة عندما أغضب أوديسيوس الرب الأعلى للبحر.

اتخذ أوديسيوس وطاقمه المرهَق الذى استنفذ صبره ملجأ من الريح والعاصفة فوق ما بدا أنه جزيرة صغيرة هادئة. لكن ساكن هذه الجزيرة لم يكن سوى السيكلوب(١٥) بوليفيماس. كان العملاق ذو العين الواحدة ابن بوسيدون، رب البحر. قد قبض فوراً على كل الطاقم وتركهم أسرى

(١٥) السيكلوب Cyclops : واحد من ثلاثة عمالقة وحيدى العين انحدروا من التايتان وسكنوا جزيرة صقلية تبعًا للأساطير - المترجم.

فى كهفه. كل صباح ومساء، كان السيكلوب ينحنى وينتزع رجلين لوجبته. ولم يكن أمام بقية أفراد الطاقم سوى المراقبة يائسين بينما يمسك بهم الوحش بإحكام بين قبضاته. ثم اهتز، وهاجمهم بعنف، وفى النهاية أكل البشر البؤساء. هذا العملاق الرهيب، وبعد أن استكان جوعه فى تلك اللحظة، استغرق فى نوم عميق. هلك الكثير من أفراد الطاقم بتلك الطريقة المروعة.

كان أوديسيوس عازمًا على الهرب وبحث فى الكهف عن أى أثر لسلاح. كان هناك الهراوة العملاقة للسيكلوب. كان الأمر يحتاج إلى عدة رجال لتحريك قطعة الخشب الضخمة هذه، وعملوا طوال الليل على برى طرفها وجعله طرفًا حادًا. وعند اقتراب الفجر، وضعوا الطرف فى جمرة مشتعلة فى نار العملاق، وعندما أصبح الطرف أحمر ساخنًا، رفعوا العمود على أمل أن يدخل الطرف المحترق مباشرة فى عين السيكلوب. دفعوه بكل ما لديهم من قوة.

استيقظ السيكلوب وهو يصرخ من الألم وهو يصارع من أجل نزع العصا، التى اخترقت عينه وجعلته أعمى. بينما كان يكافح، جرى الطاقم بسرعة هابطين إلى جانب الجرف إلى سفينتهم. ونظروا إلى أعلى وهم يجذفون مبتعدين. كان بوليفيماس فى غضبه الطائش قد انتزع قطع صخور ضخمة من الجبل، وجعل يرشقهم من فوق حافة الجرف آملاً أن يغرق السفينة الهاربة. وفى غضب تام، صرخ وألقى لعناته على الطاقم ونادى أبيه، بوسيدون، لينتقم من أوديسيوس.

منذ ذلك الوقت، كان على أوديسيوس أن يواجه المخاطر، كل منها كان مرعبًا ومميتًا. قضى فى الرحلة إحدى عشرة سنة، بتضحية رهيبة. فقد كل فرد من أفراد طاقمه وفقد سفينته. كان عليه أن يدرك قوة اللعنة عندما ظهرت لهم اليابسة لأول مرة: جزيرة غامضة حيث كانت تسكن الساحرة القديرة سيرسى Circe. كان أوديسيوس يعرف سحرها ولم يسقط فريسة لقواها الخارقة، كما حدث للجميع قبله. ودون أن تكون غاضبة، قدمت سيرسى معروفًا لأوديسيوس. رافقت البحار وطاقمه إلى مائدة كبيرة ذات مقاعد طويلة محملة بالفاكهة والخبز، وعسل النحل والنبيذ. "يا أوديسيوس الذكى والشجاع " قالت سيرسى، "لقد قمت ورجالك برحلة طويلة". أومأت إليهم بالجلوس أمام المائدة. "باعتباركم الضيوف المكرمين فى جزيرتى، أدعوكم لتناول الطعام والاسترخاء، لأن هناك الكثير من المخاطر فى انتظاركم عند رحيلكم".

كانت تحذيراتها قاسية وطلبت سيرسى أن يعيرها كل من على المائدة انتباهه. تنبأت بثلاثة مخاطر فورية سوف تتطلب كل مقدار من القوة والشجاعة التى يمكنهم حشدها. "أولاً" حذرت الساحرة، "تأتى الحوريات البحرية. انتبهوا كيف تبدو فتنتهن، لأن الكثير من الملاحين وقعوا فريسة لتعويذاتهن البحرية. أصوات الحوريات أكثر جاذبية. السفن المارة يتم سحرها بالموجات الوديعة للحن يحيط بها ليس من هذه الدنيا". توقفت سيرسى، ثم أضافت بنبرات صوت أسكتتهم، "لكن موسيقاهن سم وتجذب البحارة من مشاعرهم. انجذب الكثيرون للسماع الأكثر وضوح لموسيقاهن الرائعة، فتخلوا عن السفينة وتبعوا النغمات عبر البحر حيث تجلس الحوريات".

عندئذ نظرت سيرسى مباشرة لكل فرد من أفراد الطاقم. "يجب عليك أن تعرف أن الحوريات لا يلاحقن أحداً أبداً، إنهن ينتظرن فحسب"، حذرت. "ويا للمفاجأة، كم يبدون محبوبات بأذرعن الممتدة تومئ للبحارة المجهدين من الأمواج بأن يسبحوا تلك المسافة القصيرة إلى جزيرتهن البيضاء الرملية. لكن كل ذلك، يا أصدقائى، وهم". قسى وجهها واتقدت عيناها بقسوة. "واحسرتاه! البائس المسكين الذى يتخلى عن مشاعره ويتبع هذه الموسيقى يسبح إلى موته. لأن اللون الأبيض للساحل غير ناتج عن الرمال المتوهجة. فى الحقيقة، إنها مغطاة بالأوصال المبعثرة التى ابيضت من الشمس، والعظام، وجماجم أولئك الذين هلكوا من قبل. ولا تشعر الحوريات بالرضا إلا إذا سبحت ضحية جديدة إلى ذلك الشاطئ. لأن تلك الصبايا الجميلات لسن سوى نساء طيور. إنهن ينقضضن على فريستهن، ثم يحملنه فى براثنهن، ويقطعنه ويمزقنه حتى يصبح كومة أخرى فوق العظام. تذكروا، كم هو ملح ندائهن بأن على كل أفراد الأطقم أن يغطسوا فى الأمواج، تاركين سفنهم دون توجيه لتتحطم على الشاطئ الصخرى".

بدا أوديسيوس ورجاله مذهولين. بالتأكيد ذلك خطر أكبر حتى من السيكلوب. "من فضلك قولى لنا، أيتها الحكيمة سيرسى"، توسل أوديسيوس، "هل تعرفين طريقاً لنا نجعله ممراً آمناً خلال هذه الفتنة؟".

ابتسمت سيرسى، لأن قواها باعتبارها ساحرة جعلتها مساوية لأى نوع شرير أو خسيس من السحر. "إليكم ما يجب أن تفعلوا، لكن اهتموا بأن تتبعوا تعليماتى بالضبط. عندما تقتربون من جزيرة الحوريات

-وستعرفون ذلك لأن هناك دائمًا هدوء صامت قبل غنائهم - عليكم جميعًا تليين شمع النحل الذى سأعطيه لكم وسد آذانكم به". واستمرت، "أوديسيوس، أخشى أن فضولك سيؤدى إلى دمارك. إذا رغبت فى سماع أغانيهن، الشىء الوحيد الذى يمكنك أن تفعله من أجل ذلك بشكل آمن هو أن تجعل أفراد طاقمك يربطونك من اليد والقدم فى الصارى". عند ذلك، حدقت فى رجال الطاقم وقالت، "تذكروا، سوف يتوسل إليكم ويناشدكم لكى تطلقوا سراحه. سوف يأمركم بأن تطيعوه، لكن عليكم أن ترفضوا. إذا جاهد ليتخلص من أربطته، أوثقوه بشكل أكثر إحكاما بالصارى، أو ستفقدون كل شىء".

وأوديسيوس، الذى سأم من التفكير فى مزيد من المخاطر الوشيكة، طلب من سيرسى أن تفشى أية معارف أخرى مفيدة أيًا كانت وأية أسرار لديها. وتكلمت الساحرة مع أوديسيوس ورجاله عن "الصخور المتجولة".. صخرتى بحر هائلتين ناتئتين تتجولان حرتين على أرضية المحيط. يجب تجنبهما، لأن المرور بينهما مدمر بالتأكيد. يمكن للصخرتين المتجولتين أن تصطدما ببعضهما، وتسحقا أية سفينة إلى شظايا.

ثم أومأت سيرسى إلى أوديسيوس للسير معها. تكلمت بهمس لمدة طويلة، ومن الواضح أن ذلك كان عن الخطر الثالث. اندهش أفراد الطاقم من المصيبة التى ستكون أخطر من مواجهة السيكلوب، والحوريات، والصخور المحطمة. لكنهم لم يجرأوا على السؤال لأنهم لن يتحملوا الاستماع. كانوا يثقون فى أوديسيوس لكى يقودهم بعيداً عن طريق الأذى.

فى الصباح التالى، أعطت الساحرة لأوديسيوس كرة من شمع النحل اللدن. وهى واقفة على الشاطئ، لوحت بيدها وانطلقت ريح بحرية لتدفع السفينة فى طريقها بسرعة مناسبة. ولم يقض أوديسيوس وطاقمه وقتًا طويلًا فى البحر حتى همدت الريح فجأة وظلت أشرعة السفينة رخوة. جلسوا وكان البحر ساكنًا فى حرارة شمس الظهيرة، وكل ما حولهم كان فى حالة سكون عجيب. وعندما تذكر تحذير سيرسى، عمل أوديسيوس بتعجل. أمسك بشمع النحل فى الشمس وأمر رجاله بأخذ ما يكفى من الشمع اللين ليسدوا به آذانهم، لأنهم جميعًا يعرفون الموسيقى القاتلة التى توشك أن تبدأ. لم يكن أحد فى حاجة لتذكيره بما يجب فعله بعد ذلك. ذهب أوديسيوس متحمسًا إلى الصارى، حيث تم ربطه بإحكام فى المكان. ثم، فى الحر والسكون، اصطف الرجال بكل قوتهم.

وكما هو متوقع، على مسافة بعيدة ظهر شاطئ جزيرة أبيض فخم متلألئ. كان يبدو كجنة مغرية، حيث كان يجلس عليه أجمل الصبايا بأذرعن ممتدة نحو السفينة. أحنى المجذفون رؤوسهم وتمسكوا بقوة بالمجاذيف. وكان أوديسيوس الوحيد الذى عانى من القوة الكاملة لسحر الحوريات. رفعت الصبايا أعينهن وحدقن مباشرة إليه. ثم أتت أغنيتهن. بدأت خافتة، صوت عذب جذاب. فى البداية كانت الترتيلة التى لا يمكن مقاومتها آسرة للقلب. وبالتدريج أصبحت أعلى، ثم أكثر إلحاحًا، حتى بدا أنها ملأت كل الهواء الذى يتنفسه أوديسيوس.

كان جزء من التعويذة أن من يسمع أغنية الحوريات يسمع كلمات يكون لديه شغف كبير للاستماع إليها. وبالنسبة لأوديسيوس، غنى

كورال الحوريات عن أعماله البطولية العظيمة، ممتدحًا إياه وواعدًا بمزيد من الشهرة والنجاح.

تعالى إلينا، يا أوديسيوس

أكثر المحاربين الإغريق شهرة.

أنت وحدك مصدر الكرامة والمجد لكل الإغريق.

استرح قليلاً، يا أوديسيوس المرهَق،

لأنك تستحق ذلك.

ومن جديد ثبتن تحديقهن، وهن يحاولن ملاطفة البطل الذى أصبح شبه مجنون. ومن جديد غنين أغان يعلن من خلالها أنه الشخص المختار.

أنت مبارك، يا أوديسيوس العظيم،

لأنك سمعت صوتنا

أغنية الأسرار العذبة

الحكيم فقط يعرف ذلك.

اتبع الجمال، يا أوديسيوس.

أجهد أوديسيوس نفسه لملاحقة الموسيقى. وبكل قواه العضلية جعل يتلوى ويجاهد لفك أربطته. توسل إلى أفراد طاقمه، ناسيًا أنهم لا يستطيعون سماعه. صرخ طالبًا فكه، وهو يعد بأنه لن يتخلى عن

السفينة من أجل الحوريات. وعندما رأى اثنان من الطاقم تهوره الناجم عن اليأس، تحركا فى اتجاهه وأحكما أربطته. ثم عادا إلى مقعد التجذيف، وجذفا بسرعة أكبر. عرفا أن التعويذة كانت شديدة، لأن أوديسيوس كان بحاراً جرب بالفعل اشتباكات وفتن استثنائية. ولا أحد استطاع أن يشله إلى هذه الدرجة.

وبينما كانوا يجذفون لتجاوز الجزيرة، تجرأ رجل واحد على النظر إليها. عرف أن أوديسيوس كان مبتهجًا إلى أقصى حد برؤية الرمال البيضاء اللامعة. لكن بدون وجود موسيقى تفتنه، رأى المجذف الجزيرة تكسوها أكوام عالية من بقايا الهياكل العظمية لمن كانوا فى وقت ما بحارة شجعان. ورأى أيضًا البرود القاتل فى التحديقات الثابتة للحوريات، وهو يعرف أن أوديسيوس لم يرى سوى الجمال. مع اختفاء الجزيرة المقيتة فى الأفق، نظر إلى أوديسيوس. من جديد كان هناك تعقل على وجه أوديسيوس. قطع رجل الطاقم أربطته وحرره من الصارى، وأزال سدادات الشمع من آذانيهما.

"أشكرك لأنك بقيت وفيًا، يا صديقى". قال أوديسيوس وهو يستعيد المزيد من مشاعره، "لأن صيحاتهن المغرية كان صوتها مثل ألحان بالغة العذوبة، وكنت أتوق إلى ملاحقة ندائهن. لا يمكننى وصف الاشمئزاز الذى شعرت به تجاه الجنون الذى أصابنى من مفاتنهن".

انتهت التعويذة وأرواحها. وما أسرع ما ملأ الأشرعة نسيم كان يتجمع. شعر رجال الطاقم براحة مدهشة بعد تجاوزهم الآمن للحوريات. وتحققوا من أن أول المخاطر التى تنبأت بها سيرسى قد مر. لكن التفاؤل

انتهى بسرعة عند سماع صوت تحطم عال. وكان هذا التحطم وهدير المحيط المسبب للصمم الذى تبعه يعنى فقط شيئًا واحدًا، أنهم يبحرون نحو الخطر الثانى، الصخرتين المتجولتين. وحيث إن الصخرتين والحواف المحيطة بهما غير مغروسة فى أرضية المحيط، كانت السفينة فى مسار اصطدام مؤكد بشىء يتغير مكانه باستمرار. اضطرب البحر بينما كانت الصخرتان الضخمتان تنجرفان وهما تقتربان، كشريكين مشقوقين، ثم تتصادمان معًا لتسحقا الساذج الذى يمر بينهما.

عرف أوديسيوس أن عليه أن يغير المسار فورًا. وشعر بالإحباط فها هو أمامه فى الممر الضيق الخطر الثالث، وكان هو الوحيد الذى يعرف حقًا مدى رعب هذه العقبة. لكن لم يكن أمامه بديل فى هذه الحالة، لأنه لكى يبحر فى مكان آخر فإن ذلك كفيل بأن تُسحق سفينته فى لحظة.

ارتاع رجال الطاقم عندما سمعوا صوتا آخر مخيفا فى البحر. نظروا ليجدوا أن الممر أمامهم يتحرك بعنف مثل قمع عملاق، والمياه تتناثر على هيئة رذاذ حوله فى كل مكان. "شاريبديس" قال أوديسيوس بفظاظة، "الدوامة التى تشرب البحر وكل ما يمر فوقه. علينا أن نبحر بعيدًا عن طريقها. جذفوا أسرع على الجانب الأيمن من المضيق". كان أوديسيوس المسكين مشوشًا من الاضطراب. لم يكن فى استطاعته أن يخبر رجاله بكل ما أفضت به سيرسى إليه. لم يستطع الكشف عن أن ستة منهم يوشكون على الوقوع فى نهاية مرعبة بين قبضات سيلا Scylla[١٦] البشعة.

(١٦) سيلا Scylla: أنثى وحش بحرى عند اليونان عاشت فى كهف وكانت تلتهم البحارة - المترجم.

كان أوديسيوس يعرف أن عليه اتباع نصيحة سيرسى. لقد قالت له: "ليس هناك طريقا آخر سوى المرور خلال هذا المر. عليك أن تجرى إلى سيلا لتجنب شاريبديس". جذف الرجال بكل ما لديهم من قوة، وهم يبحرون ضد اتجاه التيارات الشديدة التى تسحب سفينتهم فى اتجاه الدوامة. وفى نضالهم للبقاء بعيداً عن شاريبديس، اقتربوا أكثر من الجانب الأيمن. ومن كهفها وثبت سيلا مندفعة. تهادت إلى الأمام برؤوسها الستة القبيحة، كل منها بفك واسع مفتوح. انقضت عليهم وانتزعت نحو نصف دزينة من رجال الطاقم. وكما حدث من قبل مع السيكلوب، لم يكن هناك ما يمكن لأحد فعله لإنقاذ الرجال المساكين. أعطى أوديسيوس الأمر متحجر القلب بمواصلة التجذيف والاستمرار فى نفس المسار.

استمر البحارة فى مسارهم يملؤهم الحزن. كم كانت تلك الرحلة بشعة. اقشعر أوديسيوس عندما فكر فى مدى سهولة الأمر لو أنه لاحق الحوريات. استطاع فقط أن يأمل فى أن يكون ما قالته له سيرسى هو الحقيقة: "قضت كاهنة على الحوريات بأن يمتن لو أن أى رجل مر دون الاستسلام لأغنيتهن". مع خسارة ستة من زملاء الطاقم انتزعتهم سيلا، طلب أوديسيوس الرجال الباقين أن يحصلوا على بعض الراحة حيث اعتقدوا أنهم قد تخلصوا على الأقل من أحد المخاطر الثلاثة. كانوا

منهكين ومرهقين من كل ناحية، لكنهم كانوا قد تجاوزوا المخاطر الثلاثة وظنوا أنهم ربما سيبحرون فى جو صاف بعد ذلك.

لكن عقاب وغضب بوسيدون الذى لا يرحم كان قاسياً. كان مزيد من البؤس فى انتظارهم على الأفق. أبحر الطاقم إلى الأمام فى رحلتهم السيئة منذ بدايتها.

٥

هجمات المدفعية الدموية : القراصنة!

تحت الراية السوداء

جولى روجر، تلك الراية السوداء المشئومة بالجمجمة والعظمتين المتصالبتين، كانت شعارا لقرصان جسور.

فى الواقع، كانت أول رايات للقراصنة ذات لون أحمر، ومن المرجح أكثر أن التسمية "جولى روجر " Jolly Roger أتت مما يصفه الفرنسيون بأنه راية فظيعة: جولى روج jolie rouge أى الأحمر الفاتن. ويخمن آخرون أن الاسم أتى من لقب للشيطان: "روجر المسن". وأياً كان أصله، كان معنى جولى روج بالغ الوضوح؛ رعب قرصان فى أعالى البحار وفرصة ضئيلة للرحمة.

بالنسبة للقراصنة، كانت الراية رمزا للأخوة والتكاتف. ربما كان جعلها ترفرف هو طريقة مخادعة للموت المضحك فى المواجهة. كان أغلب القراصنة يرفعون الرايات السوداء، والتى يطلق عليها الأعلام الصغيرة التى تدل على هوية السفينة، وكان القباطنة يبتكرون تصميماتهم الخاصة لتحديد علامة الرعب الخاصة بهم. استخدموا ترتيبة من صور الموت، كل منها له معنى مخيف: الرمح يعنى الموت العنيف، بينما القلب الدامى يعنى موتا بطيئا وتعذيبياً، والساعة الرملية تعنى أن الوقت قد انتهى، ووجه الشيطان المبتسم يرمز إلى المهانة والتعذيب. كان العصر الذهبى للقرصنة وكل راية سوداء كانت توحى بالذعر.

الرايات السوداء للقباطنة القراصنة المشهورين

بارثولوموى روبرتز Bartholomew Roberts : قبطان البحر الدارج، الذى كان يعرف أيضًا باسم بلاك بارت Black Bart، كان يتباهى براية صغيرة سوداء عليها قبطان يشرب نخبًا مع هيكل عظمى. وصمم أيضًا راية أخرى، كانت ترفرف مثل عهد انتقام. وتعرض قبطانًا، المقصود أن يكون روبرتز، وهو يقف على جمجمتين عليهما علامتين ABH و AMH . كان بلاك بارت يكره جزيرتى باربادوس ومارتينيك لأفعالهما ضده، و ABH ترمز إلى "رأس أحد سكان باربادوس "A Barbadian`s Head، وAMH، "رأس أحد سكان مارتينيك" A Martinician`s Head. وحقق روبرتز جزءًا من عهده عندما شنق حاكم مارتينيك من أحد طرفى عارضة الشراع. وعندما مات روبرتز، قيل إن العصر الذهبى للقرصنة قد مات أيضاً.

جاك راكهام Jack Rackham : كان راكهام قرصانًا مندفعًا، وكان لقبه كاليكو جاك بسبب الملابس الكاليكو(١٧) اللامعة التى كان يرتديها باستمرار. كان تصميم رايته بسيطاً مقارنة بملابسه: جمجمة وسكينان متقاطعان بدلاً من عظمتين. ورغم أن تصريحاته كانت تهديدية، كان راكهام أكثر مكرًا من كونه شجاعًا. والإشاعة عن ذلك أنه تم رميه من سفينة قرصنة بسبب تصرفاته الجبانة قبل أن يصبح قبطانًا. وعندما

---

(١٧) كاليكو Calico : قماش خشن مزخرف، قماش قطنى أبيض - المترجم .

هاجمت البحرية الملكية سفينته، اختبأ كاليكو جاك فى عنبر السفينة السفلى، وكان يشرب مع طاقمه. وفى أعلى سطح السفينة، حاربت المهاجمين امرأتان من القراصنة: مارى ريد Mary Read وزوجة راكهام آن بونى Anne Bonney . وقبل شنق كاليكو جاك فإن كل ما استطاعت زوجته قوله له: "لو أنك حاربت كرجل، لما كانت هناك ضرورة لشنقك ككلب".

إدوارد لوو Edward Low: يتقطر الهيكل العظمى بالدماء الحمراء فى راية لوو رعبًا حقيقيًا، لأن هذا القبطان القرصان اشتهر بالتعذيب الوحشى. كان يتصف بطبيعة قاسية وكان يستمتع بمعاقبة ضحاياه بطرق بشعة. عندما رمى أحد القباطنة كنز سفينته فى المحيط بدلاً من تسليمه للقراصنة، أصبح لوو مسعورا. قطع شفتى الرجل وقلاهما أمامه. وفى مرة أخرى، قطع أذنى قرصان وقدمهما طعامًا للبائس المسكين مع ملح وفلفل أسود.

توماس توى Thomas Tew: كان ذراع وسكين على الراية السوداء يرمزان إلى النهاية المروعة لحياة الضحية. كانت راية توى تغيراً جريئًا بالصورة التالية: ذراع عضلى يمسك بسيف أسيوى ينحنى للتعبير عن منطقة نفوذ القرصان توى. لقد جمع ثروة هائلة بسرقة مصادر التجارة الثرية فى المحيط الهندى. ولسخرية الأقدار، كان من المحتمل ذبح توى بسلاح يشبه السيف المنحنى عندما طار من فوق صارى سفينته الرئيسى.

إدوارد تيش Edward Teach: كان تيش، المعروف أكثر باسم بلاكبيرد، سيد المآسى، الذى لم يترك أية فرصة لتغذية صورته الشيطانية. وكان لافتًا للنظر إلى حد كبير حتى إن كثيرين أطلقوا عليه "مجسد الشيطان". كانت راية بلاكبيرد الشيطانية متخمة بالرموز المروعة: هيكل عظمى لشيطان ذى قرنين يمسك بساعة رملية فى يد عظمية، وسهم يشير إلى قلب دام فى اليد الأخرى.

معاملات سائدة

الحياة المبهجة والقصيرة يجب أن تكون شعارى.

بارثولوموى روبرتز Bartholomew Roberts ، قبطان قرصان

التوقيع على ميثاق القرصنة كان يوصف بأنه معاملات سائدة. أولئك الذين يبحثون عن "الحياة المبهجة"، وربما مجرد حياة أفضل، يرون أن القرصنة مهنة مثالية بما تعد به من مغامرة، وثروة، وشراب، ومقامرة. وبالطبع، كانت القرصنة تجذب المتغطرسين، والسفاحين، واللصوص، لكن الكثير من القراصنة جاءوا مباشرة من البحرية. وبالنسبة إليهم، فإن حياة القرصان تعنى التحرر من الانضباط العسكرى الصارم والقاسى وشروط العمل المروعة.

لا يهم كيف يدخل فرد الطاقم فى "المعاملات السائدة"، لأن كل سفينة قرصنة لها قواعدها التى تسمى "قوانين السلوك" أو "بنود الميثاق". كانت عبارة عن عقود تحدد الشرف بين اللصوص. ينتخب الطاقم فى البداية القبطان، ثم يعملون كجماعة لوضع القواعد. كل قبطان يوقع على الوثيقة أو يدونها، يحلف بقسم على الإنجيل، أو على بلطة أو على زوج من المسدسات المتقاطعة، وهو وعد بإطاعة قوانين سفينته.

والقراصنة الذين يسرقون من زميل فى طاقم الرجال قد يتم شق آذانهم وأنوفهم. بل كانت هناك عقوبة أكثر تخويفاً وهى قانون موسى، والذى يحكم بالجلد أربعين ضربة بالسوط ناقص واحد. فى إحدى السفن كانت تلك العقوبة التى يتم تنفيذها فى حالة حمل شمعة مضاءة بدون قنديل. وكان يتم توقيع عقوبة التسعة وثلاثين جلدة بسوط له تسعة فروع من الحبل المعقود. والحبال على الطرف المعقود كانت تمزق اللحم. وكان الكثير من الرجال يغمى عليهم أو يموتون قبل تنفيذ التسعة وثلاثين جلدة. والذين نجوا كان عليهم معالجة الجروح الملوثة.

وكان يتم تنفيذ عقوبات الموت على متن سفينة القرصنة بأسلوب الإعدام، بربط القرصان المدان بالصارى وإطلاق النار. وفى إحدى حالات القتل الرهيبة تم ربط الرجل المذنب مع ضحيته ورميهما فى البحر. ولكن، بالنسبة للقراصنة، كانت أقصى عقوبة هى إلقائهم على جزيرة معزولة، لأن موتهم مضمون بالسحل أو التعذيب. كانت عقوبة يستحقها الذين ينسحبون من المسئولية، والقتلة، والقباطنة الذين يتصفون بالقسوة.

كان يتم وضع الشخص البائس على الشاطئ فى جزيرة منعزلة ويُعطى له قارورة واحدة من البارود، وقارورة واحدة من الماء، ومسدس واحد وطلقة نارية، ربما كحماية ليوم واحد. ثم تبحر السفينة مبتعدة تاركة الرجل المتهم وحده ليموت. لم تكن الجزر جنات استوائية، بل كانت غالبًا أصغر بكثير من سلاسل الرمال المتكونة بفعل الأمواج، والتى قد يغطيها المد العالى تماماً بماء البحر. لم يكن هناك بالتالى أى أمل فى

نجاة المنبوذ. لو أنه استطاع الحصول على الماء والطعام، ستكون حياته هى مجرد البقاء من يوم لآخر.

أحد آمال القرصان المنبوذ فى جزيرة معزولة كان ظهور سفينة على الأفق. ومن عجائب الأقدار أن ذلك قد يكون حكما آخر بالموت، حيث إن القرصان الذى كان يتم القبض عليه فى هذه الحالة كانت تتم محاكمته وشنقه. وفى الغالب يصل البائس المسكين إلى نتيجة أن الاستخدام الأمثل لمسدسه والطلقة الواحدة هو أن ينهى بؤسه قبل أن تصبح الأمور أكثر سوءا.

بنود ميثاق

من بنود ميثاق كان يقسم عليه طاقم "بارثولوموى روبرتز":

١ - لكل رجل صوت متساو فى الشئون الجارية. وله حق شرعى متساو فى الإمدادات الطازجة أو المشروبات الروحية القوية فى أى وقت متاح، وعليه استخدامها كما يريد إلا إذا أدى نقص هذه المواد إلى أن يكون من الضرورى من أجل الصالح العام أن يتم التصويت على تخفيض هذه المواد.

٢ - يتم النداء على كل رجل فى دوره بنزاهة بقائمة لوحة الغنائم، لأنه بالإضافة إلى أنصبتهم الخاصة، يُسمح لهم بغيار من الملابس. أما إذا خدعوا الجماعة حتى بما قيمته دولار واحد فيما يخص طبق، أو مجوهرات أو مال، فيجب عزلهم. إذا سرق أى رجل رجل آخر يجب شق أنفه وأذنيه، ويوضع على الشاطئ حيث يكون من المؤكد أن يواجه شدائد.

٣ - يجب ألا يلعب أحد من أجل المال لا بالنرد ولا بأوراق اللعب.

٤ - يجب إطفاء الأضواء والشموع فى الثامنة ليلاً، وإذا رغب أى فرد فى الطاقم فى الشراب بعد هذه الساعة يجب أن يجلس فوق السطح المفتوح دون إضاءات.

٥ – يجب على كل رجل أن يحافظ على حصته، وسيفه القصير ومسدساته في كل الأوقات ويكون جاهزاً لمواجهة الأحداث.

٦ – لا يُسمح بوجود أى صبى أو امرأة.

٧ – ذلك الذى يهجر السفينة أو مكان خدمته أثناء المعركة يجب معاقبته بالإعدام أو بإلقائه فى جزيرة معزولة.

٨ – يجب ألا يضرب أحد شخصا آخر على متن السفينة، لكن يجب حسم شجار كل شخص على الشاطئ بسيف أو مسدس بالطريقة التالية. بأمر من الضابط المسئول، كل رجل يكون قد تم وضعه ظهراً إلى ظهر يستدير ويطلق النار فوراً. إذا لم يفعل أى منهم ذلك على الضابط المسئول أن يبعد السلاح النارى عن يديه. وإذا أخطأ الاثنان الهدف يجب أن يلجأ إلى سيفيهما، وذلك الذى يسفك أول دم لغريمه يجب إعلان أنه المنتصر.

٩ – يجب على أى رجل ألا يتحدث عن تخليه عن طريقتهم فى الحياة إلا إذا كان لديه ١٠٠٠ جنيه. ومن حق كل رجل أصبح عاجزاً أو فقد أحد أطرافه أثناء الخدمة أن يحصل على ٨٠٠ عملة ثمانى[١٨] إسبانية من المخزون العام وللأضرار الأقل يتم تقديم مبلغ بشكل تناسبى.

---

(١٨) ثمانى Piece Of eight : عملة إسبانية قديمة – المترجم .

١٠ – القبطان والضباط المسئولان يحصل كل منهما على نصيبين في الغنيمة، وضابط الدفعية وعريف الملاحين نصيب ونصف نصيب، وبقية الضباط كلهم نصيب وربع نصيب، والسادة الحميمون المحظوظون نصيب لكل منهم.

١١ – للموسيقيين حق الراحة فى يوم السبت فقط. وفى الأيام الأخرى من باب الفضل فقط.

حديث قرصنة

ابتكر القراصنة عالما يخصهم، ثريا بالمعتقدات، والخرافات، واللغة. وفيما يلى بعض تحويلات قرصنة فى التعبيرات أصبحت كلمات مستخدمة فى الكلام فى الحياة اليومية تحت الراية السوداء:

قرصان Pirate /Pyrate

كلمة قرصان Pirate أتت من كلمة يونانية قديمة تعنى يهاجم. والقراصنة كانوا هم اللصوص والإرهابيين فى البحار. ويمكن تسميتهم بأسماء مختلفة تبعاً للبحر الذى ينهبون الآخرين فيه. كان القراصنة corsairs[١٩] يعملون فى مياه الساحل المغربى، بينما كان القراصنة buccaneers[٢٠] يقومون بهجماتهم فى البحر الكاريبى. وكان القراصنة privateers[٢١] قراصنة قانونيين، لديهم ختم التصريح من بلدهم، "عهد

(١٩) من الواضح التشابه بين الكلمة الإنجليزية Corsair : والعربية قرصان – المترجم .

(٢٠) القراصنة Buccaneers : الذين كانوا يسطون على السفن الإسبانية فى الأنديز الغربية خلال القرن السابع عشر – المترجم .

(٢١) قراصنة Privateer : قائد أو أحد أفراد طاقم سفن مملوكة ومجهزة على نحو خاص مصرح بها من قبل الحكومة فى أوقات الحرب لمهاجمة وأسر سفن العدو – المترجم .

باغتصاب سفن العدو". وكان يطلق على القراصنة الأوغاد، والقراصنة rovers، وشحاذى البحر، والقراصنة freebooters، والمغامرين العسكريين filibusters .

الغنيمة loot ، والأسلاب booty ، والثمانيات

كان حلم أى قرصان أن يكشف عن العنابر السفلية فى السفينة المشحونة بالأحجار الكريمة الثمينة، والفضة والذهب. كانت الغليونات[٢٢] الإسبانية تمد القرصان بالعملة المفضلة .. الدبلون doubloon، وهى العملة الإسبانية الذهبية، والثمانيات: وهى العملات الفضية المسكوكة التى يمكن، كما يدل اسمها، تجزيئها إلى قطع لتبادلها. وفى ١٧٦١، استولت سفينة القراصنة هنرى جينينجز على أسلاب ثمينة بلغت نحو ٣٥٠ ألف ثمانية. ومن ضمن الغنيمة المغتصبة من سفن تجارية التى تبحر من الشرق كان التوابل، والحرير، والعاج، والبورسلين، والملابس المطرزة، والمجوهرات.

وقد يمثل صندوق أدوية جيد التخزين كنزاً مذهلاً كأنه ذهب بالنسبة لطاقم مصاب بالمرض. دوّن أحد ضحايا هجمة قرصان: "لم يكن أى جزء من الحمولة اعتبره اللصوص هو الأعلى قيمة سوى صندوق الطبيب، لأنهم كانوا جميعاً مصابين بجدرى حاد". والكنز الآخر كان الاستيلاء على جراح أو إرغامه على الصعود إلى السفينة. كان يتم دائماً

(٢٢) الغليون Galleon : سفينة ضخمة ذات ثلاثة صوار استخدمت من القرن ١٥ إلى ١٧ خاصة فى إسبانيا كسفينة تجارة وحربية - المترجم .

الاستيلاء على الأسلحة مثلها مثل الخرائط البحرية والأجهزة الملاحية، التى كانت جديرة بالمحاربة من أجلها.

وتبعاً لمدى صعوبة الرحلة بسبب الإمدادات والتجهيزات، كان القراصنة يجدون كنزاً فى إمداد الطعام والماء وقماش الأشرعة الإضافية فى سفينة أخرى. لم يكن القراصنة اليائسون سوى منظفين، وبالفعل يسرد بوضوح تجريد سفينة جرداء تبعاً لقائمة بنود سُرقت فى غارة فى ١٧١٧: "إبر خياطة، حبل مجدول، مقلاة قلى"، بينما كانت قائمة غارة أخرى بعد خمس سنوات: "أربعة عشر صندوقاً من الشموع، وصندوقين صابون". غنم كاليكو جاك راكهام سفينة فى جزر الهند الغربية، وحصل على حمولة محبطة لا تتعدى "٥٠ لفافة تبغ وتسعة أكياس من البيمينتو[٢٣]". شتان ما بين ذلك وأحلام الذهب.

زعم الكثير من القراصنة أنهم دفنوا كنوزهم، لكن القليل جداً الذى تم العثور عليه على أى حال. وكان مشهورا عن القراصنة أنهم يشربون ويقامرون على الفور فيبددون ثرواتهم. ومن المرجح أكثر أن اكتشاف كنز يخص التجار أو الكنائس يصبح محاولة لإخفاء "أسلاب قرصان" دفينة.

ويحافظ القراصنة غالبًا على السفن التى غنموها فى حالة جيدة حتى يستخدمونها هم أنفسهم. ويحسِّنون هذه السفن المسروقة التى يعتبرونها غنائم لتناسب أسلوب حياة الغارات ولتحمى السفينة الرئيسية للقرصان.

---

(٢٣) البيمينتو Pimiento : فلفل حلو أحمر اللون – المترجم.

جولة القرصان

تبحر سفن القراصنة فى البحار السبعة لمطاردة طرق التجارة للسفن التجارية ساعية وراء كنز تسلبه. وكان طريق إبحار الأوغاد معروف بأنه جولة القرصان. وكانت سفن القراصنة تغادر المستعمرات الأمريكية أو الموانى الكاريبية خلال البر الإسبانى بعيداً عن أمريكا الشمالية، عابرة إلى السواحل الإفريقية، والمحيط الهندى، وبحر العرب. عندئذ تصل إلى ساحل القراصنة، فى مدخل الخليج الفارسى، وقد تخاطر لأبعد من ذلك فى بحر الصين الجنوبى لتمر بالطرف الشمالى لأستراليا. ثم تعود عبر المحيطات إلى ميناء البداية، وهى رحلة قد تستغرق منهم عدة سنوات.

أوكار القرصان/ مأوى القراصنة

على طول جولة القرصان، يجد الجوالون ملاذاً آمناً فى موانى تتسامح مع سلوكهم الفظ والبربرى. وكانت الأوكار المشهورة تتضمن بورت رويال، وجامايكا، وجزيرة مدغشقر، ونيو بروفيدنس فى جزر بهاما، التى أطلق عليها البعض وصف "مأوى القراصنة". وكانت تزدهر بالأعمال التجارية للقرصنة - شراء البضائع المسروقة من الأوغاد وإمدادهم بكل أنواع الخدمات، والطعام، وشرابهم خلال بقائهم على البر. وفى نيو بروفينس، كانت أرملة صانع أشرعة تطرز جولى روجرز والملاحين السود للقباطنة القراصنة. كان يدفع لها الثمن بالويسكى.

كان القراصنة مسرفين إلى حد كبير واشتهر بعض القباطنة بأنهم لابسون مزخرَفون يرتدون الصدريات والسراويل القصيرة القرمزية، وشرائط الخصر الحريرية، والسلاسل الذهبية. لكن غالبية القراصنة كانوا من النوع الصارم والفظ. وتم ترويع رجل دين كان معروفاً فى مرفأ بورت رويال فى جامايكا فى حضور "بعض أكثر الأشخاص خسة فى كل العالم". وقرر موظف رسمى آخر أن: "كل هذه الجهات تعج بالقراصنة".

من البحار

"من البحار" كانت الإجابة الشائعة التى يتم الصياح بها على المياه عندما كانت تتم مناداة سفينة قرصان بواسطة سفينة تسأل عن أصلها. كانت الإجابة، من الغالبية، إجابة أمينة، لأن طاقم القرصان كان يتكون من رجال من أى ميناء أو سفينة مأسورة حدث أنهم انضموا إلى العصابة والكثير منهم قضى فترة طويلة من حياته فى المحيط.

لا رحمة

"لا رحمة" كانت تعنى أنه لن يتم التسامح. إذا حذر قرصان سفينة لكى تستسلم وأظهرت مقاومة أو ردت بالحرب، عندئذ يتصرف القراصنة بحسم حتى لا ينجو أى شخص فى القتال الناجم: "لم تظهر أية رحمة، فلا توقع لأية رحمة فى المقابل" كان هذا ما يراه القراصنة فى المعركة.

محاكمة ساخرة

إذا تم القبض على قرصان يوضع فى الحبس، وتتم محاكمته بتهمة القرصنة وفى معظم الأحيان يتم شنقه. وثبت أن القليل من القراصنة يُحكم عليهم بالبراءة، أو يتم العفو عنهم. ومع الصورة الوحشية للمشانق الموجودة دائماً فى تصورات الكثير من القراصنة، ابتدعوا لعبة للتخفيف من تصورهم لها أو حتى أعدوا أنفسهم لما لا مهرب منه. كان يتم عرض المحاكمة الساخرة للقرصنة كنوع من التمثيل الإيمائى، حيث يقوم رجال الطاقم بدور السجان، ومنفذ الشنق، والمحامى والقاضى. وفى لحظة ما يصبح التمثيل قابلاً للتصديق حتى إن القرصان المتهم يصدق هو نفسه أنه قضى عليه بالشنق. يرمى قنبلة يدوية على المحلفين ويسحب سيفه القصير ليقطع ذراع المدعى العام. وعندئذ يتم استجوابه فى محاكمة قرصان حقيقية.

الرقصة القنبية

كان العقاب الاعتيادى للشخص المدان بالقرصنة هو الإعدام شنقًا. وكانت أنشوطة منفذ الشنق مصنوعة من القنب، وكان القراصنة يمزحون بأن التأرجح بسبب جرائمهم كان يشبه أداء رقصة الموت. ويشيرون إلى الشنق باعتباره "الرقصة القنبية". وعندما كان يتم تنفيذ حكم الإعدام فى القراصنة فى إنجلترا، أو أى مستعمرة بريطانية، كان يتم شنقهم عند

علامة أدنى درجات الجزر. وكانت ممارسة شائعة لأنه كان يتم تعليق أجسادهم فى أقفاص مشنقة - أقفاص جسم حديدية مصنوعة على المقاس قبل الموت بواسطة حدادين محليين. وكانت الجثث المتأرجحة تتحلل لكن عظامها تظل سليمة. كان العرض المروع مقصوداً كتنبيه عام بأن القرصنة لن يتم التسامح معها.

بلاكبيرد

أوو.. الأمر يتعلق ببلاكبيرد الدموى
وهو ما سوف أحكيه،
وكيف أن الشجاع ماينارد
أرسله عاجلاً إلى الجحيم.

منسوب إلى بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin

رجل طويل مفرط الانفعالات ضخم الجسم، له رأس ذو شعر أسود كثيف ولحية طويلة غير مشذبة متدلية حتى خصره تغطى وجهه تقريباً، إنه القبطان القرصان إدوارد تيش، واسمه المستعار بلاكبيرد. كان حضوره يفرض نفسه تماماً على الآخرين لعجرفته وكثافة شعره فقط، لكن بلاكبيرد كان يعرف كيف يجعل صورته تتسق مع الصورة الشيطانية.

عندما كان بلاكبيرد يقود هجوماً، كان يرتدى ما يلائم المناسبة. كان يرتدى كل ما هو أسود، مع حزام عريض حول خصره يمسك بسيوفه، وخناجره، والمسدسات الجاهزة للإطلاق. والحزام العريض ذو جيوب

الرصاص على صدره يحمل ستة مسدسات محشوة يكمل طقمه المخيف. كانت لحيته وشعره مضفورين على هيئة جدائل، ثم يلتويان، مع بعض الجدائل مرفوعة وتحيط بأذنيه حتى تصل إلى تحت قبعته. ومثل أى بهلوان كان بلاكبيرد يربط شرائط قماشية فى كل لحيته، وحاك أعواد ثقاب جنود المدفعية فى شعره. كانت فتائل المفرقعات مصنوعة من قنب مغطس فى نيترات البوتاسيوم ومياه كلسية لجعلها تشتعل ببطء. قبل الهجوم مباشرة، يشعل بلاكبيرد الثقاب. كان المشهد مخيفا بالتأكيد عندما يقفز على سطح السفينة، والمسدسات والسيوف فى يد والدخان يخرج من رأسه فى كل اتجاه كلما اتقدت فتائل المفرقعات.

انتشرت الشائعات والقصص عن هذا الكائن القادم من الجحيم: يمكن لهذا القبطان الشيطانى أن يقطع رجلا إلى نصفين بضربة واحدة من سيفه القصير، وكان لديه اثنا عشر زوجة وجعل كل منهن ترقص فى ليلة زفافها بأن أطلق المسدسات عند قدميها، وشرب رومه ممزوجًا بالبارود. كان من الصعب فصل الرجل عن أسطورته، لكن إحدى حكايات بلاكبيرد الشائعة كانت على ما يُعتقد حقيقية وغير مزخرفة.

ذات ليلة، كانت مليئة بإيحاء الثمل، وقف بلاكبيرد بين أفراد طاقمه وهو يصيح: "يجب أن نصنع جحيماً يخصنا ونرى إلى أى مدى سوف نتحمله". عند ذلك توجه مباشرة إلى العنبر السفلى فى السفينة، يتبعه اثنان أو ثلاثة من الأكثر شجاعة أو سكرًا. أجلست الجماعة نفسها على أحجار يتم استخدامها باعتبارها صابورة موازنة السفينة، عندئذ أصدر بلاكبيرد أمرًا بإحضار بعض الآنية المليئة بالكبريت إليهم. عندما تم جلب

الآنية، أقفل بلاكبيرد الفتحات الصغيرة فى السفينة وأشعل الكبريت. بدأت الأبخرة الكبريتية الخانقة والسامة تملأ العنبر السفلى وبدأ الرجال يشعرون بالرعب، يتوسلون إليه أن يطلق سراحهم. لم يكن بلاكبيرد ليتزحزح عن موقفه حتى أصبحوا جميعاً يلهثون وقد تقطعت أنفاسهم. عندئذ فقط فتح الفتحات الصغيرة وسمح لرجال الطاقم بمغادرة جحر الجحيم. وتفاخر بلاكبيرد بأنه هو وحده الذى صمد أطول مدة.

فى مناسبة سكر أخرى، أطلق بلاكبيرد طلقة عشوائية، فأصاب أحد أفراد الطاقم فى ركبته وأصبح مقعداً. وبسؤاله عمّا دفعه لأن يفعل ذلك، أجاب القبطان كما هو متوقع أنه إذا لم يطلق النار على رجل بين الحين والآخر، قد ينسى الناس من هو بلاكبيرد.

كان بلاكبيرد قد أصبح يمثل رعبًا بالنسبة للجميع. وفى حادثة فى نورث كارولينا، قبض على عدد من سكان المدينة رهائن حتى تمت تلبية طلباته بإمدادات طبية. وكإهانة إضافية على الأضرار، نهبت عصابة بلاكبيرد المدينة قبل مغادرتها. تلك المآثر، وبالمثل الإشاعات حول أن بلاكبيرد يرغب فى تحويل منطقة أوكراكوك إنليت فى نورث كارولينا إلى مأوى قرصان، أدت إلى الثأر. فبدعم من حكومة فرجينيا، تم إرسال سفينتين حربيتين خفيفتين إلى مياه أوكراكوك إنليت، مأوى بلاكبيرد. وكان الملازم روبرت ماينارد من البحرية الملكية مسئولاً عن هذا الهجوم.

اقتربوا من سفينة بلاكبيرد، "انتقام الملكة آن"، ومع اقتراب حلول الليل رسوا. وبلاكبيرد، الذى كان يحتفل، نظر إلى الخارج ليرى السفينتين وتصور أنهما ليستا سفينتين تابعتين للبحرية، وواصل

الشرب. ومن وقت لآخر، استمرت القصة، نظر بلاكبيرد إلى السفينتين، ثم خذله أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا فى الظلام، تمتم، "أوو.. صياح الديك، أوو.. صياح الديك" crow cock، وهو التعبير الذى يُعتقد أن أوكراكوك أخذت اسمها منه.

مع ضوء الصباح، قاد ماينارد السفينتين نحو "انتقام الملكة آن". انطلق بلاكبيرد إلى الحركة بسرعة على أمل أن يوجه السفينتين إلى القنوات الضيقة، حيث سيرتطمان بالأرض. لكن إحدى السفينتين، الرانجر، اقتربت جداً من مكان راحة القبطان الفاجر وأطلق بلاكبيرد مدافعه العشرة عليها. قُتل ستة رجال وجُرح عشرة فى وابل الشظايا القاتلة الناجمة عن الانفجار.

واستخدم ماينارد وطاقم السفينة الثانية، "جين"، الارتباك والدخان لمصلحتهم. أمر ماينارد أغلب رجاله أن يختبئوا على السطح. وعندما تلاشى الدخان، نظر بلاكبيرد فوق "جين" بابتهاج. بتلك الفئة القليلة جداً من رجال الطاقم يمكن أن تكون السفينة غنيمة سهلة. ربط السفينتين معاً بحبل وانطلق رجاله فوقها. ودون إبطاء قابله الرجال خارجين من كل اتجاه والفتحات التى تقود إلى السطح. ورغم أن رجال بلاكبيرد كانوا يتجاوزونهم فى العدد إلى حد كبير، ظل القبطان يحارب بعزم جهنمى.

ووجهًا لوجه أطلق ماينارد وبلاكبيرد مسدساتهما فى نطاق التسديد المباشر. أصابت طلقة ماينارد القبطان القرصان، لكن بلاكبيرد استمر فى المعركة. تقاتل الاثنان، وتبادلا إطلاق المسدسات ولوحا بسيفيهما. قاتل القرصان المجروح هائجاً وبصوت صليل ضرب سيف ماينارد أوقعه

من يده. وبينما بلاكبيرد يتحرك للقتل، جاء أحد رجال ماينارد من خلفه بسكين وقطع عنق القرصان. ويقال إن بلاكبيرد نظر إلى أعلى إلى البحار الشاب والسكين فى يده ليقول له، "أحسنت، أيها الفتى". أجاب البحار حينئذ، "إذا لم أكن أحسنت، سأفعل ذلك بطريقة أفضل". وعند ذلك ضرب ضربة أخرى، وفى تلك المرة قطع رأس بلاكبيرد.

فحص ماينارد الجثة ليكتشف وجود خمسة وعشرين جرحاً: خمسة ناتجة عن طلقات المسدس وعشرين من السيوف. ربط ماينارد الرأس بحبل وعلقه مثل تذكار على عمود مقدمة السفينة، وأبحر عائداً إلى فرجينيا.

وقبل ترك أوكراكوك، رمى ماينارد جثة بلاكبيرد فى البحر ولعن رجال الطاقم الجثة بدون رأس التى عامت ثلاث مرات حول السفينة. وحتى الوقت الحالى يقول الناس إنهم يرون القرصان بلا رأس يسبح فى مياه أوكراكوك إنليت.

حبيبتا السفَّاح

أبحرت آن بونى ومارى ريد مع كاليكو جاك راكهام. عندما قابلت آن بونى كاليكو جاك، هربت معه لتكون قرصانة. تزوجا وعملا معاً على متن "فانيتى"، وكانا يغيران على طول الساحل الأمريكى. وهى متخفية فى زى رجل، كانت مارى ريد تعمل على سفينة هولندية أسرها راكهام. أصبحت المرأتان صديقتين بسرعة واستمرا فى حيلتهما بارتداء ملابس الرجال.

يمكنهما التلويح بالسيوف والبلط، وإطلاق الرصاص من المسدسات مثل أى رجل قبطان إن لم يكن أفضل منه. كانتا محاربتين باسلتين، عندما تتم مهاجمة سفينة كاليكو جاك بواسطة رجل حرب، وكانت بونى وريد تحاربان المهاجمين معًا. وتم القبض عليهما ومحاكمتهما بتهمة القرصنة فى جاميكا. وتبعًا لشهادة تم الإدلاء بها فى محاكمتهما، كان فى استطاعة الثنائى أن يسب، ويقسم، وأن يكون فى كل لحظة بشراسة وتهديد أى رجل. وبعد إدانتهما والحكم عليهما بالشنق، فإن القرصانتين "ترافعتا ببطنيهما"، أى كانتا حاملتين وحسب القانون يمكن الإبقاء على حياتيهما. ماتت مارى ريد ويُعتقد أن آن بونى تم إطلاق سراحها لتعيش حياة أكثر هدوءاً فى مكان ما فى جزر الكاريبى.

موشحة القبطان كيد

كان شنق القبطان وليام كيد مشهداً رهيباً لمن تجمعوا عند مرسى الإعدام على نهر التايمز فى لندن. تم إعدام كيد عند انخفاض المد، لكن الحبل قطع. سقط وكان عليه أن يصعد على السقالة مرة أخرى. وجعلته هذه المحاولة الثانية يتدلى وجثته معلقة هناك حتى مرور ثلاث حالات مد. بعد ذلك تم إنزال جثة القبطان كيد، وتغليفها بالقطران، وتجهيزها فى قفص حديدى يسمى مشنقة. وتم شنقه من جديد.

اسمى كان وليام كيد، عندما أبحرت، عندما أبحرت،

كان اسمى وليام كيد، عندما أبحرت،

كان اسمى وليام كيد، وقد حرّمت قانون الرب،

هذا ما فعلته بخبث، عندما أبحرت.

علمنى والداى جيداً لكى أبتعد عن الجحيم،

لكننى تمردت عليهما، عندما أبحرت.

كان لدىَّ إنجيل فىَ يدى، بالأمر النبيل من أبى،

ودفنته فى الرمال، عندما أبحرت.

طفت من صوت إلى آخر، ووجدت الكثير من السفن

أغرقتها أو أحرقتها، عندما أبحرت.

قتلت وليام مور ودفنته فى قبره،

لم يكن يبعد كثيراً من الفراسخ عن الشاطئ، عندما أبحرت.

كنت مريضاً وقريباً من الموت، وأقسمت بكل نَفَس،

أن أسير فى طرق الحكمة، عندما أبحرت.

ظننت أننى دُمرت، وأن كأسى الشرير تحطم،

لكن الصحة عادت فوراً، وأنا أبحر.

ندمى لم يدم طويلاً، وقسمى ما أسرع ما نسيته،

وكانت الإدانة نصيبى، وأنا أبحر.

تجسست على ثلاث سفن من فرنسا، وتقدمت تجاهها

وأخذتها بالصدفة، وأنا أبحر.

تجسست على ثلاث سفن من إسبانيا، سلبتها كغنيمة،

حتى ذبحت كل من عليها، وأنا أبحر.

لدىَّ تسعون قضيباً من الذهب، وعملات دبلون[٢٤] متعددة،

(٢٤) دبلون Doubloon : عملة ذهبية إسبانية قديمة كانت تستخدم فى إسبانيا وأمريكا الإسبانية - المترجم .

وثروات لا تعد ولا تحصى، وأنا أبحر.

هكذا تم القبض عليَّ، وأُلقيت فى السجن،

تم الحكم عليَّ، بالموت.

وداعًا، أيها الصارى الرئيسى المندفع بقوة، إلى تركيا، وفرنسا، وإسبانيا،

لن أراك مرة أخرى، لأنه قضى عليَّ بالموت.

وداعًا مدينة لانون، الفتيات الفاتنات فى كل مكان،

هنيئاً لك بذهبى، لأننى سوف أموت.

والآن إلى مرسى الإعدام، عليَّ أن أذهب، بينما يقف حشد من عدة آلاف،

لكن يجب أن أتحمل الصدمة، ويجب أن أموت.

هكذا أصعد إلى الحبل، وكل أصدقائى فى الأسفل

يقول بيل لقد قلنا لك ذلك، لابد أن أموت.

تعالوا أنتم جميعاً أيها الشباب والمسنون، هنيئاً لكم ذهبى،

لأنه كان سبب فقدى لروحى، ولابد أن أموت.

والآن اتخذوا منى إنذاراً، وتجنبوا الصحبة السيئة،

وإلا ستأتون إلى الجحيم معى، لأنه لا بد من موتى.

وداعًا، أيها الصارى الرئيسى المندفع بقوة، يجب أن أموت، يجب أن أموت

وداعًا، أيها الصارى الرئيسى المندفع بقوة، يجب أن أموت،

وداعًا أيها الصارى الرئيسى المندفع بقوة، إلى تركيا، وفرنسا وإسبانيا،

لن أراك ثانية أبدًا، لأنه لابد من موتى.

قبور مائية

لهيب البحر

تحصن قراصنة البحر الإسكندنافى البرابرة فى سفن الفايكنج الطويلة الضيقة على هيئة أفعى ورحلوا فى بحار الشمال، يسلبون وينهبون كل من يمر بمساراتهم. ومع بسالة ودموية هؤلاء الملاحين الإسكندنافيين، كانوا يقعون فى قبضات مخاوف خرافية.

"بالتأكيد" هكذا فكروا، "لا بد أن أرباب وربات هذه المياه التى لا تغفر قساة ومتحجرو القلوب". ولقد نحت جوالوا البحر الإسكندنافى كلمات وقاية أو مقاطع شعرية برموز سحرية على مقدمة السفينة – تعويذات البحر لتهدئة الأمواج.

كان الإسكندنافيون يعتقدون فى العمالقة المخيفين تحت الماء الذين يصعدون إلى السطح لمجرد القبض بشدة على سفينة فايكنج عابرة وسفك دم الطاقم فى المياه الثلجية. وكان آجير Aegir أحد عمالقة الأعماق هؤلاء، رجل مسن شرس كان وجهه الجليدى مُأطر بشعر أبيض

من زبد البحر وكانت له أصابع مخيفة ذات مخالب. عندما يهيج البحر، كان الفايكنج يعتقدون أن آجير هو الذى يصنع شرابًا فى غلايته الهائلة حتى ترتفع فقاعات المياه وتهتاج فيتكون الزبد. كانت قاعدة التضحية المروعة للفايكنج أن يتم إغراق كل رجل عاشر من بين السجناء لتهدئة آجير الصاخب، وزوجته التعيسة ران Ran، وبناتهم التسع صبايا الأمواج والتلاطمات العارمة.

كانت ران، التى يعنى اسمها "اللصة" و"النهابة"، قاسية الفؤاد وسفاحة. فى نزوة تعطش للدماء، كانت تحرك المياه إلى أعلى وتستدعى الرياح العاصفة. ثم صعدت ران إلى أعلى بشبكتها للسحب. ولوحت بها فوق سفينة الفايكنج العابرة (لأنها كانت ابنة عملاق)، وصوبت وألقت بشبكتها على قمة صوارى السفينة وأشرعتها. والبحارة الذين أمسكتهم شبكتها تم جذبهم بقوة من على السطح وسحبهم.

وجرت ران صيد كل يوم إلى قاعة رب البحر، "لهيب البحر"، فى الأعماق أسفل الأمواج وكان القصر بكامله يومض بالذهب المتجمع من حطام السفن والرجال المسحوبين. وكان البحارة يحملون العملات الذهبية، حتى إذا أمسكت بهم ران وسحبتهم فى شبكتها - الرحيل إلى ران، كما كان يُطلَق عليه - فإنهم يريدون أن يعاملوا بأفضل طريقة فى الحياة المائية بعد الموت.

لا تدع أحدا يذهب صفر اليدين

إلى أسفل إلى ران اللازوردية.

كم هى جليدية قبلاتها

ومتقلبة معانقاتها.

لكننا سوف نفتن عروس البحر

بذهبنا المحمر.

من سيرة فريثجوف لإسياس تيجنير Esias Tegner

خزانة دافى جونيس

كل ما يريده البحر، سوف يأخذه البحر

وبالنسبة لملاح من أى نوع، يبدو الموت فى المياه متربصاً، منتظرا إلى الأبد، فى الشواطئ الضبابية أو ربما تحت الأفق. وهؤلاء الذين قابلوا مقبرة مائية عند الغرق، أو بسبب سوء حظ آخر، يقال إنهم كانوا يذهبون إلى قاع المحيط بالفعل. وهناك، كان فى انتظارهم خزانة بحر عملاقة بغطاء مفتوح للإمساك بالميت والاحتفاظ به. كان البحارة يطلقون على تابوت تحت البحر خزانة دافى جونيس. ودافى جونيس Davy Jones نفسه كان روحاً كئيبة وخبيثة يسكن فى الأعماق المظلمة، متأهبا دائماً للسفن المارة فوقه.

وأحياناً، كما كان يعتقد البحارة، يتم إحضار دافى جونيس فى عاصفة هوجاء لكى يمسك فقط بمزيد من الأرواح فى خزينته. بل كان يُعتقد أنه يصعد فى أوقات معينة ويسحب شخصاً سقط من فوق سطح

السفينة إلى خزينة الموت الخاصة به. وكان الكثير من القراصنة يضعون أقراطاً ذهبية لحماية أنفسهم من الغرق، ولم يكن من غير الشائع أن تبحر سفينة بحدوة فرس حديدية آمنة تحت السطح. وكان هناك البعض الذين قد لا ينقذون رجلاً يغرق، حتى لو كان فرداً من طاقمهم، خوفًا من أن ينخدع دافى جونيس فى روح ما وينطلق بسرعة وعنف باحثًا عن روح شخص آخر.

والأكثر أهمية، أن البحارة الذين يخافون شياطين الأعماق لم يكونوا يتكلمون عن الشيطان بذكر اسمه. وفى الواقع، يظن البعض أن اسم دافى جونيس أتى من محاولة البحارة تجنب ذكر اسم الشيطان فوق سطح السفينة، فكانوا يطلقون عليه بدلاً ن ذلك تافى Taffy، اللص، ويونس Jonah أو جوناس Jonas (من الإنسان سيئ الحظ الذى سقط فى بطن الحوت). وأصبح تافى جوناس هو دافى جونيس. ويظن آخرون أن الاسم جاء من البحارة الهنود الذى يطلقون على إلهة الموت الهندوسية اسم ديفا لوكا Deva Lokka. وبالتدريج أصبح اسم "دافى جونيس" من المحظورات التى لا يمكن أن يجرؤ بحار على النطق بها على متن السفينة.

> **سوف يتم لعنى إن لم يكن هذا هو دافى جونيس نفسه، أعرفه من عينيه الصغيرتين مثل طبقى فنجان، وأسنانه ذات الصفوف الثلاثة، وذيله، والدخان الأزرق الذى يخرج من منخريه. ونفس دافى جونيس هذا، طبقًا لميثولوجيا البحارة، هو الصديق الذى يرأس كل الأرواح**

الشريرة الأخرى فى الأعماق، وتتم رؤيته غالبًا فى أشكال متعددة، جاثم بين الحبال المعدنية لتثبيت الصارى عشية الأعاصير، وبين حطام السفن، وخلال الكوارث الأخرى التى تتعرض لها حياة الحرفة البحرية، لتحذير البائس المخصص للموت والفاجعة.

وفص خيالى لدافى جونيس قدمه الروائى توبياس سموليت Tobias Smollet، ١٧٥١

٦

ألحان لا تُنسى:

هل هو مجرد ضباب؟

أشباح الماء

كانت ليلة مظلمة التى أتكلم عنها، كنا بعيدين عن الشاطئ،

لن أنساها أبدًا طوال حياتى المعرضة للموت.

كانت مناوبات مظلمة غامضة عندما شعرت برعب قشعريرة،

قلبتنى رأسًا على عقب كما لو أننى سمعت من ينادى من الممات.

من «البحارة الشبحيين» أغنية شعبية من نيوفاوندلاند.

أكثر الأطياف إثارة لفزع البحار هو ظهور أشباح الماء، أو روح شخص ميت، فى المحيط المفتوح. وكثيرة هى الحكايات الصادرة عن بحارة يعملون فى مناوبات آخر الليل. قصصهم تثير القشعريرة، لأنهم جميعاً يحكون عن أشكال شاحبة لرجال يخرجون من المحيط، ويتأرجحون على الأمواج، ثم يبدأون فى تسلق جوانب السفينة. كانوا فى مشاهد شرسة كالغيلان، لأن وجوههم كانت رمادية شاحبة ضاربة

إلى البياض وكانت أطرافهم طويلة وبارزة العظام. وملابسهم كانت معلقة عليهم، أكثر قليلاً من خرق ممزقة. كان يتقطر منهم الماء وهم يتحركون على السطح. لم ينطق أى من الأشباح بكلمة ويأدون مهامهم فى صمت مخيف. ولا يمكن للطاقم الاعتيادى فى المناوبة سوى التحرك ليخلى لهم الطريق. وكان من الواضح من خلال التحديقات الفاترة الخالية من التعبير لأشباح الماء هذه أنهم لا يلاحظون أى شخص آخر على سطح السفينة.

وبشكل شديد الاعتناء يبدأون فى عملهم، يكدون بإيقاع خارق للطبيعة كما لو أنهم يستمعون إلى نشيد بحارة شبحى غير مسموع لآذان البشر. كان الطاقم الشبحى الذين يتقطر منهم الماء يسحبون بقوة شباكًا خالية، يجرونها بقوة كما لو أنها تحتوى على صيد وافر. ويجلس قبطان شبحى بصورة تنذر بالشر أمام ذراع الدفة ليقود السفينة. كان الطاقم الشبحى عاقد العزم ومتمهلا فى كل حركة يقوم بها كما لو أنه يعرف تماماً ما يقوم به. وخلال الليلة الطويلة، بينما تستمر عمليات الطرح والسحب، يكون الطاقم الاعتيادى مصعوقا تمامًا من الخوف ولا يقاطع الأشباح. مع أول ضوء للنهار، تنهى أشباح الماء أعمالها وبنفس التصميم العابس والصامت، يتحركون فى اتجاه سياج السفينة ويقفزون فى الماء. وعندما ينظر إليهم الطاقم الاعتيادى لا يرون أى جسد. لقد عاد طاقم الأشباح إلى الأعماق، ينتظر أن يظهر على سطح السفينة التالية التى تبحر فى منتصف الليل فى هذه المنطقة نفسها حيث واجهوا موتهم على متن سفينتهم الخاصة.

وكان يُعتقد أن رؤية شبح ماء لبحار كان قد غرق، أو تم قتله في المحيط، هو فأل سيىء للشخص الذى ظهر له. إذا خرج شبح ماء من أى مكان وتمت رؤيته وهو يتعلق بأحد طرفى عارضة الشراع، كانت تلك علامة على أن البحر يطالب بضحية أخرى.

لكن شبح الماء الذى ظهر خارج جزيرة سابل، بعيداً عن شواطئ نوفا سكوتيا Nova Scotia، لم يمثل تهديداً للبحارة. فى الواقع، كان فى الغالب يقدم يد المساعدة. تحطم الكثير من السفن بعيداً عن جزيرة سابل، ويطلق الناس على الجزيرة مقبرة الأطلنطى. وظهر شبح هذه المياه الشرسة لطاقم أحد زوارق النجاة كان يقوم بمهام إنقاذ هناك.

عندما كانوا يجذفون فى اتجاه سفينة فى كرب لاحظ الطاقم ما بدا أنه رجل يسبح فى الماء تحتهم. وعندما ظنوا أنه ضحية السفينة المحطمة، جذفوا فى اتجاهه. وعندما نظروا إلى أسفل فى الماء، قابلتهم تحديقة بلا معنى من عينين على وجه أبيض كالموت. كان للرجل جرح بليغ على أحد الخدين. ودون صوت أو إظهار أى تعبير، تسلق الرجل إلى سطح الزورق، متخذاً لنفسه مكاناً بين المجدفين. والمياه تتقطر منه، انتزع مجدافاً وانضم إلى الإيقاع، لأنه لم يكن هناك أحد فى زورق الأحياء يمكنه أن يوقفه ويسأله عمّا يحدث. وخلال عملية الإنقاذ، كان الرجل يجلس فى مكانه، وهو يحدق بعيداً فى المحيط. وعندما أصبح زورق الأحياء جاهزاً للعودة، التقط الشبح المجدافين فى يديه النحيلة البيضاء وبدأ يجذف عائداً إلى جزيرة سابل. وفى المنطقة المضبوطة فى المياه حيث تمت رؤية المجذف الشبحى فى البداية يعوم، تخلى الشبح عن

المجدافين، ووقف فى الزورق، ثم غاص من فوق جانب الزورق، واختفى فى البحر.

ويعتقد كثيرون أن شبح ماء جزيرة سابل هو شبح أحد رجال طاقم زورق أحياء غرق خلال مهمة إنقاذ. ويعتقد آخرون أنه تم حل اللغز بإخطار وُجد على الجزيرة. عندما احترقت منارة الجزيرة، وجد رجل كان ينظف الموقع صندوقًا معدنيًا صغيرًا مدفونا تحت أكوام التراب وأخشاب محترقة. وفتح الصندوق القديم ووجد سجل المنارة. وأحد التدوينات المسجلة يُعتقد أنه يحدد بوضوح الشبح البائس من جزيرة سابل. يقول التدوين:

الجمعة، العاشر من سبتمبر ١٨٢٦ . هبت عاصفة جنوبية شرقية يوم الأربعاء. لا كلام من أية سفينة. مات هوارد موراى. مات فى العاشرة صباحاً. تقيح الجرح الشديد فى خده الأيمن وانتشر تسمم الدم. وقبل موته قال إنه سيعود، وإنه سيصعد دائمًا فوق زورق الأحياء حيث سبق أن كان كبير المجدفين لمدة خمسة وعشرين سنة. أتساءل هل سيفعل ذلك. دفناه عصر اليوم فى رأس البر الداخل فى البحر.

الهولندى الطائر

لعدة قرون كان أكثر المشاهد إثارة للخوف لدى الملاحين المبحرين حول كيب أوف جود هوب Cape of Good Hope سفينة شبحية تتوهج فى المياه، وعليها قبطان شيطانى وطاقمه الشبحى من الهياكل العظمية. وأقسم الكثير من البحارة أنه بدون أى صوت إنذار أو قبل إبصارها على الأفق، تظهر سفينة ضخمة محجوبة فى الضباب، بكل أشرعتها ترفرف فى الريح، يقودها الطاقم مباشرة إلى مسار سفينتهم. وفى اللحظة التى يبدو فيها أن التصادم لا مهرب منه، تختفى السفينة كلمح البصر كما ظهرت.

منذ عدة مئات من السنوات، أبحر قبطان مبهرج ذو طبع بذىء إلى جزر الهند الشرقية. كان اسم القبطان الهولندى هندريك فاندر ديكر، ويعنى لقبه "الشخص المستتر بعباءة". كانت له سمعة كريهة على المياه، لأنه مدفوعاً بالجشع كان يبحر غالبًا عبر رحلة بحرية إجبارية خلال أكثر البحار اضطراباً ويجعل الراكبين يتحملون متاعب طرق مجهدة. لم يكن يهتم بأمن وراحة أى أحد، لكن ما كان يهمه فقط هو قضاء وقت ممتع والحصول على كمية كبيرة من المال.

فى رحلة بحرية عاصفة معينة استطاع القبطانِ أن يبحر إلى الأمام وهو يحاول الالتفاف حول كيب أوف جود هوب. وكان قبل مغادرته للميناء قد تفاخر بأنه يمكنه القيام برحلة بحرية صعبة فشل الكثيرون فى القيام بها أو ماتوا وهم يحاولون. لكنه بينما كان مبحراً خلال مياه الأرض الداخلة فى البحر، هبت ريح عاصفة. أصيب الركاب بالذعر وأمرهم بالهبوط تحت السطح، ثم أغلق عليهم هناك وهو يبحر مندفعًا إلى الأمام. كان طاقمه مرعوباً، لكن عندما اعترض رجل واحد وحاول منع القبطان، دفعه فاندر ديكر من فوق السطح، حيث لاقى حتفه فى البحار العاصفة. ضحك القبطان بشكل جنونى فى الريح العاصفة المولولة. وتفاخر مرة أخرى بأنه لن يتوقف أبدًا عن محاولته الالتفاف حول الرأس وأنه يستحق اللعنة إذا توقف عن ذلك، مهما كانت المسافة التى عليه اجتيازها.

صرخ فاندر ديكر بكلمات فظيعة ومتحدية فى اتجاه الريح ثم عاليًا إلى السماء. ويقول البعض أن ذلك كان الوقت الذى أجرى فيه صفقة مع الشيطان، لكن آخرون يقولون إن القبطان الغاضب سخر وتهكم على قوة الطبيعة وأقسم قسمًا شريراً وفيه كفر موجه مباشرة إلى الرب. أقسم بأنه لا الرب ولا الشيطان بقادر على منعه من الالتفاف حول "رأس العواصف".

على الفور هبطت هيئة مبهمة من الضباب، متجسدة على سطح مؤخرة السفينة كشخصية هائلة وشبحية. يقول البعض إنه كان الشيطان نفسه، حيث إن السحب التى تصب دمارها الشامل حول

الرأس يطلق عليها مفرش الشيطان. لكن الغالبية يعتقدون أن هذه الشخصية كانت على هيئة مقدسة، ربما حتى "الروح المقدس" نفسه.

منزعجًا من التطفل على سفينته، وجه فاندر ديكر مسدسه وأطلق النار. لم تحدث الطلقة جرحًا على الروح المبهمة، لكنها انحرفت وانفجرت في يد القبطان. صارخاً من الألم والغضب، هز الهولندى قبضته أمام الشخص الموجود، ثم انحبس نفسه من الصدمة فى رعب بينما كان ذراعه كاملاً قد أصابه الشلل فوراً وسقط رخوًا بجانبه.

أيًا كانت هوية الروح، فإنه كان بالغ القوة. انطلقت فوضى شاملة فى كل مكان حول الهولندى. انقصفت الصوارى إلى نصفين فى الريح المروعة. ثم تكلم الشخص الموجود بصوت عميق ومنذر بالسوء، أعلى من أى ريح أو بحر هائج:

> **فاندر ديكر، لقد تحديت قوى الطبيعة والبحر، ولقد لعنتنى. لذلك سوف تُعاقب. سوف تبحر إلى الأبد فى تلك البحار العاصفة، ولن يكون لديك أبدًا ميناء للراحة أو ملجأ ولن تحصل أبدًا على طقس طيب. من الآن فصاعدًا، سوف تكون دائمًا تحت المراقبة. لو أن عينيك ارتختا أو حاولتا أن تنغلقان من أجل النوم، فإن ألم سيف مخترق وآلافا من حبات الرمال سوف تجعلهما مفتوحتين لتظلا يقظتين أمام البحر العاصف. سوف تتبع مسارك عواصف لا تنتهى وسوف يجلب مشهد سفينتك تعاسة شديدة لكل من يقوده سوء الحظ لأن ينظر إليها. وحتى الأبدية، أقرر أنك ستكون ملعوناً بهذه الطريقة.**

أطلقت الريح غضبها الشديد وأدرك فاندر ديكر أن الشخص الموجود غادر المكان. بعد أن خفف عنه انتهاء المحنة ومقتنعاً بأن ذلك كان حلماً بسبب الإرهاق، تنفس القبطان الصعداء. لكنه عندما نظر بتمعن حول سفينته أصابه الرعب. كان كل طاقمه ملقى حول قدميه، كلهم موتى. وأمام عينيه المذهولتين، تحولت كل جثة إلى هيكل عظمى، ووقفت لتحيته، وبدأت العمل من جديد. وعلى الفور هبت زوبعة شديدة وانهالت الأمطار على سطح السفينة. وفى عاصفة قاسية، ألقى القبطان بالأمر الوحيد الذى يستطيعه؛ الإبحار بأقصى قدرة لديهم.

ومنذ ذلك اليوم فصاعداً يهيم الهولندى فى البحار. وظل غلام شيطان يعمل خادماً فى السفينة بجانبه، ليس لراحته ولكن لتعذيبه. يُقدَم للقبطان الجائع حديداً مصهوراً ساخنًا فقط وأكوابًا من الصفراء التى يفرزها الكبد. وتوسع طاقمه بمرور الزمن، وتألفوا من كل قرصان سفاح، وبحار جبان أو آثم. وقُضى على "الهولندى الطائر"، وقبطانها، وطاقم الموتى بأن تبحر إلى الأبد دون حتى إسقاط المرساة مرة واحدة.

وكانت السفينة الشيطان، وهى تبحر تلحق بها العواصف، نذير كوارث لكل من يلمحها. يثير القبطان عواصف وبمجرد ظهوره على سفينة أخرى يفسد النبيذ فوراً ويصبح كل الطعام على السفينة حبوبًا. يحاول أن يحصل على بحارة يحملون خطاباته إلى الميناء، لكن كان عليهم ألا يأخذوها وإلا سوف يصبحون هم أيضًا رجالاً موتى. والقبطان الذى كان ذات مرة متفاخرًا أصبح شبحًا بائسًا وخائفًا، يبحر إلى الأبد بسفينته الشيطانية خلال الرياح والعواصف القاسية.

حكايات البحر الشبحية

بقدر ما أتذكر، رأى أبى ما يشبه حسب قوله سفينة متوهجة بعيداً فى المياه. كان يسير على طول شاطئ خليج مع عدد من الأصدقاء ورأوا جميعاً هذه السفينة مشتعلة على رأس الخليج. قال أبى إنه بدا عليها أشخاص يجرون حول السطح. ثم، فى لحظة، اختفت السفينة دون صوت يذكر.

مرة أخرى كان يقود دراجة هوائية فى منتصف الليل يراقب جزيرة سابل، مقبرة الأطلنطى كما يطلق عليها. وفجأة رأى شيئاً ما يتوهج أمامه فى المياه. قال إنه بدا مثل يد بيضاء خرجت من البحر ممسكة بمصباح متوهج.

وما أضاف قيمة لهذه القصص بالنسبة لى أن أبى كان ملاحًا ظل يصطاد الأسماك لأكثر من أربعين عاماً. لم يكن رجلاً من السهل أن يخدعه أى شىء.

جوردون ماسون Gordon Mason ، **لانينبورج** Lunenburg ،
نوفا سكوتيا Nova Scotia

عُقد ريح الساحرات

الساحرة الثانية: سوف أهب لك ريحًا.

الساحرة الثالثة: وأنا أخرى.

الساحرة الأولى: أنا، نفسى لدى الرياح الأخرى كلها،

ونفس الموانى التى تهب عليها،

وكل أماكن الإقامة التى تعرفها

أنا ورقة لعب الملاح.

من ماكبث، الفصل الأول، المشهد الثالث

كان مسار الريح فى تفكير البحار دائماً، ويبدو أن حياته ونجاحه فى الرحلة تحت رحمة الريح. تهبُ الريح المساعدة إبحارًا سلسًا، وعدم وجود ريح بالمرة يعنى أيامًا من التوقف بلا حركة، وخسارة المال، وتضاؤل مخزون الطعام، والحرارة، والسقوط ضحية للقراصنة ووحوش البحر. وتأتى الرياح العاصفة بالموت والدمار وتحطم السفينة.

ينتظر البحارة الرياح، وهم يحملون التعاويذ والتمائم، ويتمسكون بالكثير من الخرافات التى تضمن رياحاً مناسبة. لكى تكنسهم ريح طيبة

ومستقرة، يثبت البحارة غالباً مكانس راسخة فى الصارى الرئيسى. البعض يخدش على الصارى، أو يصفرون عندما يرغبون فى نسيم، ومعروف عن البحارة من جزر الهبرديز الإسكتلندية أنهم يثبتون جلد ماعز ذكر فى أعلى الصارى لجذب الريح الطيبة.

ويدفع بعض البحارة بالفعل مالاً لضمان ريح طيبة وحظ طيب. قبل انطلاقهم فى رحلة طويلة، يذهبون لرؤية نساء يُنظر إليهن بصفتهن ساحرات. ويكون لدى البحارة تقلبات حظهم وحظ سفينتهم، كما يُقال. ولكنهم فى الغالب يذهبون لشراء رياح مبشرة بالخير.

كان الكثيرون حذرين تجاه الساحرات، لأنهم يعتقدون أنهن يلقين تعويذات غريبة على العناصر بإلقاء الأحجار، أو بغلى شعر الخنزير البرى، أو برش الماء على هيئة أنماط مثيرة للفضول. كانوا يعتقدون أن أولئك الساحرات لديهن القدرة على جلب الضباب، وعلى إثارة العواصف الشديدة، وجلب البَرَد وتسديد صواعق البرق إلى السفن فى البحر. وظل هناك بعض الساحرات اللائى رغبن فى المشاركة فى أسرارهن، ومنع العقاب عن البحارة طالما كان الأمر يتعلق بمقايضة بالمال.

باعت الساحرات الريح للبحارة على هيئة حبل ذى عقد. وكان سر كيفية استخدام عقد الريح الثلاث على الحبل يشترك فيه المشترى. يمكن للبحار المنجرف عن المسار فى البحر الساكن أن يستدعى الكمية الضرورية من الريح للمحافظة على مسار إبحاره. فك العقدة الأولى، يجعل نسيما متبخترا يبدأ. وفك العقدة الثانية يجلب أقوى رياح العاصفة، وفك الثالثة يضمن زوبعة بقوة إعصار.

حل العقدة الأولى، فهب إعصار رقيق. وعندما فك الثانية، أصبح النسيم ريحا عاصفة. وعند الاقتراب من الشاطئ الأيرلندى، أرخى الثالثة، فهب إعصار من الشدة حتى إنه دمر البيوت على الشاطئ. وعند عودته إلى كينتير Kintyre، كان منتبهًا لأن يرخى عقدتين فقط على الحبل المتبقى.

رواية رحلة جون مكتاجارت MacTaggart بين كينتير وأيرلندا، تم تسجيلها فى ١٨٧٠

خرافات شبحية

نذر شريرة

- كسوف الشمس وخسوف القمر يعتبران نذر شر.

- أحد المعتقدات فى أيسلاندا أن القمر الهلال، مع قرونه متجهة إلى أسفل نحو الأرض، يعنى تحطم السفينة خلال أطوار هذا القمر.

- الشفق القطبى الشمالى علامة على اقتراب عاصفة قوية.

- إذا تركت الفئران سفينة فى الميناء، سوف تُفقد هذه السفينة فى الماء. تغادر الفئران بالغريزة لأنها تعرف أنها سوف تتيبس على متنها.

- يطلق على الموجة التاسعة موجة الانتقام أو الموت. ويُعتقد أن هذه الموجة ستكون عنيفة ومدمرة وليست هناك طريقه لجعلها ضعيفة سوى الإشارة بعلامة الصليب عليها.

ساحرات البحر

- البحار الذى يظن أنه تحت تأثير تعويذة شريرة لساحرة يمكنه أن يجد حماية من تأثيرها بأن يلمس حديداً بارداً.

- يسيطر الحديد على شياطين البحر وأرواحه الشريرة.

- أحد الحكايات من كورنول جنوب غرب إنجلترا حول صخرة تسمى نيس Ness . إذا نزل بحار إلى اليابسة هناك، سوف تتجه إليه الأمواج الغاضبة إلا إذا رمى كل ما لديه من حديد فى البحر.

- حكاية أخرى من ساحل كورنول عن ساحرة فرادام Fradam، التى تطفو فى مغطس باستخدام عصا مكنسة طويلة كمجذاف. وأى بحار يلمح الساحرة يغرق عاجلاً بعد ذلك. ويكسر البحارة وسكان السواحل قواقع البيض بعد أن يأكلوا ما فى داخلها لمنع الساحرات من استخدام القواقع كقوارب.

الشياطين

- تحكى القصة أن المهرب الذى يصل إلى ساحل كورنول لا يمكنه، مهما حاول بكل قوته، أن يرسو. يشتم ويمزق شعره، ويرميه فى الرياح لتهدئة مصدر مصيبته، شيطان إطلاق العاصفة.

- بحارة جزيرة جرنسى جنوب بريطانيا الذين رأوا الجنى القزم البشع، جوشيناس Jochinus، يواجهون الموت عاجلاً بالغرق. ويُقال إن جوشيناس وحش بحرى ضارب إلى الخضرة، له مخالب حادة وزعانف طويلة فى الأقدام. ينادى على أسماء الغرقى، ويعرف مكان مقابرهم المائية كلها.

- فى الليالى المظلمة، يُعتقد أن الريح الشرقية تصدر عن طيور الكروان، وهى طيور يعتقد كثير من البحارة أن لها تعاملا مباشرا مع

شياطين العاصفة والأرواح. ورؤية طيور الكروان طائرة يعنى عواصف شديدة، ويطلق البحارة على هذه الطيور الصفارون السبعة. كانت أقوالهم القديمة: "عندما تطير طيور الماء إلى البر، تكون عاصفة على وشك الانطلاق".

التعويذات

- فى إسكتلندا، خلال العصور الوسطى، كان البحارة يحملون حجراً نقشوا فوقه سفينة. وكان هذا الحجر الخاص يحميهم من تحطم السفينة.

- كان البحارة يرتدون حزاماً من عشب البحر مربوطا بعقد سحرية كتعويذة حماية فى البحر.

- عندما يقذف البحر بحصاة على سطح السفينة يُعتبر ذلك تعويذة جالبة للحظ.

الموت

- إذا اغتسل جسم رجل غريق على شاطئ إسكتلندى، لا يلمسه الكثير من البحارة، لأنهم يعتقدون أن فعل ذلك يعنى أنهم سوف ينتهى بهم الأمر إلى مواجهة نفس المصير.

- البحارة الإسكتلنديون يرفضون الإبحار على سفن يكون بحارة آخرون قد غرقوا عليها.

- فى القرون الوسطى، كان أحد المعتقدات الشائعة أن إبرة البوصلة لن تتحرك إذا كان هناك جسم ميت على متن السفينة.

- تحدث الوفيات مع انحسار المد.

٧

أناشيد البحارة:

مناوبات لاذعة

أبجدية البحارة

يطلق على أغنية البحار "نشيد بحارة" chantey. وفى الغالب ربما جاءت هذه التسمة من الفعل الفرنسى chanter، والذى يعنى "يغنى". وغالبًا كان البحارة يغنون الأناشيد ذات الإيقاع لمساعدتهم فى مواصلة عملهم، لذلك قام العاملون فى منطقة التجهيزات على متن السفينة بتصنيف الأناشيد. وكان البحارة الذين يرفعون المرساة أو يلقونها يغنون أناشيد رحوية، وكان من يسحبون الصفائح أو يثبتون الأحبال المتصلة بالأشرعة يغنون أناشيد شعبية عن أعمال السحب مثل "اسحب بعيدًا يا جو". و"أبجدية البحارة" نشيد مهجع البحارة. والمهجع هو جزء فى مقدمة السفينة حيث يعيش البحارة عندما لا يكونون فى العمل. ولأن المهجع كان مكانًا للاسترخاء والنوم، لم تكن الأناشيد التى تُغنى فى المهجع عن العمل، لكنها كانت مليئة بالمرح وقص الحكايات. ومثل الأناشيد الأخرى، لا يعرف أحد من بدأ غناء "أبجدية البحارة". وكل ما هو معروف أنه تم سماعها أولاً فى مهاجع سفن فى وقت ما فى أوائل القرن التاسع عشر.

أوه، أ A هى المرساة anchor[٢٥] كما تعرفون جميعًا،

ب B هى سهم السفينة bosprit[٢٦] فوق المقدمة،

س C الرحوية capstan[٢٧] التى نرفع بها،

د D أسطح السفينة decks حيث يوجد ملاحونا.

أوه، إ Eالراية ensign تتدلى من قمة صارينا المزين[٢٨]،

ف F السطح العلوى fo`c`sle حيث نحشد طاقمنا،

ج G البنادق guns، يا سيدى، التى نقف بها جميعًا.

هـ H حبال الكر halyards[٢٩] التى تتم تقويتها كثيرًا.

أوه، آى I الحديد iron لسطح عارضة الشراع الخفيف،

جيه J شراع السارية الأمامية الذى يجتاز العاصفة بسلام،

ك K عارضة الرافدة keelson[٣٠] السفلية البعيدة،

---

(٢٥) فضلت أن أحافظ على الأبجدية الإنجليزية مع ذكر الكلمة الإنجليزية المناظرة - المترجم.

(٢٦) سهم السفينة عمود ضخم منبثق من مقدمة المركب تُشد إليه حبال تثبيت الصارى الأمامى - المترجم.

(٢٧) الرحوية أداة يستخدمها الملاحون لرفع الأثقال أو المراسى - المترجم.

(٢٨) المِزَيْن mizzen : شراع منصوب على الصارى الأقرب إلى مؤخر المركب - المترجم.

(٢٩) الكرّ حبل يستخدم لرفع وخفض راية أو شراع - المترجم

(٣٠) عارضة مثبتة بشكل متواز فوق رافدة القص فى السفينة لتدعيم أو زيادة قوة السفينة - المترجم.

ل L الحبال القصيرة lanyards[٣١] التى تتيح لنا الإمساك بإحكام.

م M صارينا الرئيسى mainmast بالغ الضخامة وبالغ القوة،

ن N الإبرة needle التى لا نخطئ فى تصويبها أبداً،

أو O مجاذيف oars طاقم سفينتنا المرح،

و بى P العلم المثلث pennant[٣٢] الأحمر، والأبيض والأزرق.

كيو Q سطح مؤخرة السفينة quarterdeck حيث يقف قبطاننا فى أحوال كثيرة،

ر R ترتيب حبال الصارى rigging التى تتماسك جيداً دائماً،

إس S الأثقال stilliards التى تُوازن قوتنا العضلية.

ت T الأشرعة العلوية topsails لتقليل حجم الشراع فى أحيان كثيرة.

أوه، يو U الاتحاد Union الذى لا يجرؤ أحد أن يسخر منه.

فى V الشدادات vangs[٣٣] التى تثبت الخطاف،

---

(٣١) حبل قصير يستخدم لتثبيت وربط شىء ما أو لحماية الحبال التى تثبت صوارى السفينة وأشرعتها - المترجم.

(٣٢) علم مثلث الشكل عادة يستخدم على السفن للإشارة أو التمييز - المترجم.

(٣٣) الشدادة حبل التثبيت الممتد من رأس عارضة الشراع أو الرافعة إلى متن السفينة - المترجم.

ولدينا العجلة التى نحملها فى الوقت المناسب،

إكس X هو الحرف الذى ليس لدينا سجع له.

أوه، واى Y الياردات التى نعدها فى أوقات كثيرة،

زد Z الحرف الذى لا مكان له لدينا،

صفارة الضابط تدعو الملاحين للمشروب المسكر، لذلك سوف نهبط إلى أسفل،

وأغنيتى انتهت، وأنا سعيد بذلك.

أغنية ماهرة كعشرة رجال.

قول للبحارة

دق الجرس

كان يتم تنظيم الوقت على متن السفينة بدق جرس السفينة مرة كل نصف ساعة تمر فى المناوبة. على سفن أمريكا الشمالية وإنجلترا، تقسم نوبات الساعات الأربعة يوم العمل. وكان يتم تقسيم نوبات الساعات الأربعة مرة أخرى لعمل مناوبات ليلية متأخرة.المناوبات:

١٢ : ٠٠ ظهراً إلى ٤ : ٠٠ بعد الظهر - مناوبة بعد الظهر

٤ : ٠٠ بعد الظهر إلى ٦ : ٠٠ بعد الظهر - أول نوبة رقابة من ساعتين

٦ : ٠٠ بعد الظهر إلى ٨ : ٠٠ بعد الظهر - ثانى نوبة رقابة من ساعتين

٨ : ٠٠ بعد الظهر إلى ١٢ : ٠٠ منتصف الليل - أول مناوبة

١٢ : ٠٠ منتصف الليل إلى ٤ : ٠٠ قبل الظهر - المناوبة الوسطى أو مناوبة فناء الكنيسة

٤ : ٠٠ قبل الظهر إلى ٨ : ٠٠ قبل الظهر - مناوبة الصباح

٨ : ٠٠ قبل الظهر إلى ١٢ : ٠٠ ظهراً - مناوبة الضحى

ويتم تقسم طاقم السفينة نفسه إلى مناوبتين. مناوبة الميسرة (على الجانب الأيسر) ويترأسها ضابط أول. والمناوبة الأخرى هى مناوبة الميمنة (على الجانب الأيمن).

يجب دق ثمانية أجراس على الأقل، وعلى الرجال على السطح، وهم مبتهجون بفرصة تغيير الأماكن معنا، أن ينادوا على المناوبة بأكثر الأساليب استفزازاً ومرحاً وفكاهة.

مثل هذا: مناوبة الميسرة، أهوى! ثمانية أجراس هناك، فى الأسفل! تشقلبوا، يا بحارتى المليئين بالنشاط.

من ريدبيرن Redburn لهرمين ميلفيل Herman Melville

حديث لاذع فى المناوبة

عندما يستخدم البحارة التعبيرات التالية، فهذا ما يقصدونه بالفعل:

- عظم فى أسنانها - زَبَد الأمواج عند مقدمة السفينة
- قدح مملوء - شراب ساخن ووجبة خفيفة ضئيلة
- رجال مايو المبهجين - تيارات تنشأ عن انحسار المد
- لا مزيد من القطط أكثر من التى يمكنها القبض على الفئران - طاقم ضخم يكفى للتعامل مع العمل الضرورى على السفينة - لا مزيد من الأيدى
- ريح جيئة وذهاباً - لا تهب أية ريح
- خطاف الطين - المرساة
- عش البهجة - ارتباك كامل
- واضع إسفين الرنكة - صياد السمك
- كرنكام كرانكام Crinkum Crankum حوت أذكى من أن يتم صيده

- كيب هورن Cape Horn فوق العادة - ريح عاصفة بالغة القسوة

- قطع حبل الرسو لشخص ما - أن يموت أو يغادر السفينة

- متزمت - من نوفا سكوتيا

- رجل المياه الزرقاء - ملاح البحر العميق

- يُلقى فى البحر - بحر عميق. عندما يتم رمى شىء ما من فوق السطح ويغطس، فإنه يُلقى فى البحر.

- يعبث به الجميع ولا يراقبه أحد - تُقال عن بحار عاطل عن العمل أو شخص فضولى.

- توم بيبير - كذاب مروع.

- من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها - من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر

- إشاعة أو خزان ماء على السفينة scuttlebutt - إشاعة gossip

- متقن - كل شىء على سطح السفينة فى حالة جيدة وفى مكانه المناسب

- سقط القدح - الساعة الرملية التى تقيس الوقت وتوضح نهاية المناوبة، أو البارومتر الذى يكون مرتفعاً أو هابطاً

- فى مؤخرة السفينة عند العجلة - عجلة القيادة فى مؤخرة السفينة

- النظارات فى يده - التلسكوب فى يده

- تقصير الشراع - ضم الشراع لكى تخفض السفينة من سرعتها

خرافات البحارة

الرياح، والطقس والعاصفة

ليس هناك هالة إلى القمر

يمكنها أن تهبط بصواريك العلوية

لكن عندما تكون حول الشمس،

يجب القيام بذلك بكل الأشرعة.

قول مأثور من بريتانى الفرنسية

- النجوم التى تظهر فجأة تعنى أن عاصفة قوية قد اقتربت.

- إذا سمع بحار طفلاً يبكى على ذراعى امرأة، ستكون هناك عاصفة عندما يذهب إلى البحر.

- إذا أخل بحار بقسم العاصفة، سوف تكون هناك عاصفة.

- إذا خطط بحار لفعل كريه، سوف يبحر فى عاصفة.

- البحار الذى يقطع شعره أو أظافره فى الجو الهادئ سوف يحرض ريحاً عاصفة. يجب قطع الشعر والأظافر فى العاصفة فقط.

- بعض المراكبية فى الهند يحتفظون بالأفاعى السامة فى مراكبهم. إذا حدث أنه، خلال الرسو فى مرفأ، كانت الأفاعى متبلدة، يبقى المركب داخل الميناء، فقط الأفعى الممتلئة بالنشاط هى التى، كما يُعتقد، تتنبأ برحلة محظوظة.

- لعب الأوراق قد يثير عاصفة.

- رمى فحم مشتعل من فوق السطح يجلب عاصفة.

- لا يجب على البحر خياطة أو ترميم أى شىء عندما تكون الريح معاكسة، لأنهم يعتقدون أنهم يخيطون الريح.

- الكلام عن الريح عندما تكون طيبة هو بحث عن المشاكل. لأنها سوف تتغير أثناء الحديث.

- هناك بعض الطرق المبتكرة لـ "استدعاء الريح": أصوات آلات موسيقية معينة يمكنها جلب الريح، أو حتى أحياناً العواصف. يضرب البحارة الصينيون الطبول الصغيرة الطويلة الضيقة ويحدثون ضجة ويقرعون الصنج ببعضها البعض لاستدعاء ريح مساعدة. والبحارة الفرنسيون القدامى كانوا يجلدون خادم سفينة غلام عند الصارى لتجميع الريح.

المحظوظ وسيئ الحظ

فى يوم جمعة تم تعويمها،

فى يوم جمعة انطلقت مبحرة،

فى يوم جمعة واجهت عاصفة،

وكانت ضائعة تماماً فى ريح عاصفة.

أغنية بحار

– يُعتبر استخدام بعض أحرف الأبجدية فى اسم سفينة أمر سيئ الحظ. الحرف S حرف سيئ الحظ، والسفن التى لديها O فى أسمائها من المرجح أكثر أن تقوم برحلة سيئة الحظ. كان سوء حظ بعض السفن التى لديها O أنها وقعت فى أخطار مغامرات عانت خلالها من احتراق ودمار حمولاتها تماماً.

– وجود ثلاثة أحرف A فى اسم سفينة حظ جيد.

– يعتقد البحارة الإسبان أنه من سوء الحظ وضع القدم اليسرى على الشاطئ أولاً، أو الصعود إلى مركب بالقدم اليسرى أولاً. كان من سوء الحظ لدى زوجة بحار أنها وضعت مكنستها خلف الباب، مع انتصاب شعرها إلى أعلى، بينما كان زوجها فى البحر.

– من سوء الحظ إحضار بيض على متن سفينة.

– إلقاء بنس من فوق مقدمة السفينة فى مستهل الرحلة يجلب الحظ الجيد.

– من سوء الحظ الخروج إلى البحر فى اتجاه معاكس لمسار الشمس.

– المظلة، سيان كانت مفتوحة أو مغلقة، على متن السفينة حظ سيئ.

- فقد مكنسة أو ممسحة فى البحر حادثة سيئة الحظ.

- ليس فقط أنه من سوء الحظ فقد دلو ماء فى البحر، لكنه فأل سيئ الضرب على دلو أو قلبه.

- لو أن صياد سمك قابل امرأة بمئزر، وهو فى طريقه إلى قاربه، يجب أن يستدير وينتظر المد.

- يجب تجنب الأشخاص ذوى الأقدام المسطحة وذوى الشعر الأحمر. وإذا قابلت أحدهم تأكد من أنك كلمته أولاً.

- من سوء الحظ الإلقاء بحجر على جانب السفينة المواجه للبحر، لأن السفينة لن تعود أبداً.

- نغمة الرنين بلمس حافة كأس يعنى تحطم السفينة، إلا إذا تم إيقاف النغمة بوضع إصبع على الحافة فجأة.

- كلمة "غريق" لا يجب التلفظ بها فى البحر.

- يعتقد البحارة أنه من سوء الحظ تغيير اسم السفينة. تحطمت الكثير من السفن أو فقدت بعد مثل هذا التغيير.

- يُعتبر من سوء الحظ لقريبين أن يسافرا معًا ضمن الطاقم على نفس السفينة. سوف يغرق أحدهما.

- لو أن بحاراً عانى من حك فى الأنف عندما صعد للمرة الأولى على سفينة، يجب أن يعود إلى ميمنة السفينة ليعطس. العطس على الميسرة يجلب للرحلة سوء الحظ.

- من سوء الحظ البصق فى العنبر السفلى لمركب ذى ساريتين.

- ذكر كلمة "خنزير" على متن السفينة يجلب سوء الحظ. وبدلاً من كلمة خنزير يتكلم بعض البحارة عن السيد دينيس.

- يجب أن ترسو السفن فى المرفأ على الجانب الشرقى من رصيف الميناء لجلب الحظ.

- لا يجب أبداً وضع قفازات اليد الرمادية التى تكسو الأصابع الأربعة معا والإبهام منفرداً على متن السفينة.

- بينما من سوء الحظ بعثرة الملح، فإنه من حسن الحظ للبحار أن يحمل قبضة من الملح فى جيبه.

- أيام الإبحار المحظوظة: الأحد، والاثنين، والأربعاء، والخميس. وأيام الإبحار سيئة الحظ: الثلاثاء والجمعة.

- قول كلمة "بيضة" على متن السفينة محرم. يجب على البحارة أن يطلقوا على البيض وقوقة البيض الغامق الصغير أو فاكهة الدجاجة، إذا كان عليهم الإشارة إلى البيض على أى حال.

- العملة الموضوعة تحت أعلى صارى السفينة تجلب حسن الحظ.

المد والجزر والأمواج

- على الطفل ألا يكشر عندما يكون المد عاليًا خوفًا من أن تثبت التكشيرة على وجهه بشكل دائم.

- يعتقد الناس على طول ساحل بريطانيا أن أغلب المواليد الجدد وُلدوا مع قدوم المد.

- فى الغالب تتبع الأمراض المد؛ يشعر الشخص المريض بأن حالته أسوأ عندما يأتى المد وبدرجة أكبر عندما يتوقف المد. بالرغم من أن هناك قولا آخر بأن "القوة تعود مع المد المرتفع".

- إذا قطعت شعرك والمد يرتفع سوف تصاب بزكام شديد.

- من الأفضل صنع الزبدة عندما يصل المد.

- يمكن الشفاء من وجع الأسنان بأخذ ماء بحر من قمة الموجة الثالثة.

- الماء من الموجة الثالثة قوى ويمكن استخدامه لنبذ التعويذات أو كلمة الشر.

- الصلوات للنجاة يجب تكرارها مع كل موجة تاسعة.

التعويذات والأشياء التى تجلب الحظ

- وشم خنزير على رِجل بحار يعتبر تعويذة لمنع الغرق.

- التمثال فى مقدمة السفينة حارس للسفينة. وكان بعض البحارة القدامى يعتقدون أنه يحميهم من العواصف، بينما يظن آخرون أن عينى تمثال المقدمة يمكن أن يرشد السفينة خلال البحار الخطيرة. يقيمون صلوات امتنان ويقدمون قرابين من الخبز والنبيذ إلى تمثال المقدمة لضمان إبحار خالٍ من المخاطر.

- لم يكن يتم أبداً استخدام خشب شجر الجوز فى بناء السفن لأن بعض البحارة يعتقدون أنه من شجرة الشيطان نفسه وسوف يجذب بالتأكيد صاعقة برق. وكانت أخشاب شجر البلوط والصنوبر هى الأفضل فى الاستخدام لأنها لا تجذب البرق.

- يتم رسم عيون على مقدمة السفينة لتجنب الشر والسحر الأسود.

- يتم تثبيت حدوة الفرس بالمسامير على الصارى الرئيسى للحماية من الشر.

- إذا جعل البحارة إصبعهم الأول والثانى متقاطعان، يبقى سوء الحظ فى الخليج. ويبصق بعض البحارة فى قبعاتهم أو فى راحة يدهم اليسرى.

- يمكن للنفخ فى بوق فى مواجهة دوامة أن يفزعها.

- يحتفظ بعض البحارة من جزر بولينيزيا ومن جزر ميكرونيزيا بقطعة من مرجان يشبه المخ تحت مقعدهم فى السفينة. يمثل المخ المرجانى رب البحر الذى تُطلب منه المساعدة لجعل عبورهم آمناً. ويتم أيضاً رمى شخصيات منحوتة على سطح السفينة لضمان مرور آمن.

-" يونس السفينة" هو أى شخص على متن سفينة يُعتقد أنه مصدر سوء الحظ. والإشارة هنا إلى يونس الذى تم رميه من فوق السفينة وابتلعه حوت. وتُحمِّل حكاية فى صحيفة فى ١٩٥٨ طائر طيب[٣٤] اسمه

(٣٤) طائر طيب budgie: ببغاء صغير هزيل من أستراليا ذو ريش أخضر أو أصفر أو أزرق - المترجم.

جوى Joey مسئولية سوء حظ السفينة "كوين إليزابيث"، التى لم يقابلها سوى التـأخيرات، والرياح العـاصـفـة والعـواصـف. وتمت تسـميـة الطائر الذى أثار السخط "يونس السفينة" وتم تشييعه دون توان خارج السفينة.

- يكسر البحـارة قطعة صغيرة من الخشب بصـوت ضوضـاء تحطيم كتعويذة مضادة.

ويسمى ذلك التكسير "ذو الحظ الطيب".

أطلق صوت المحار، يا تريتون،

حتى يعرف كل من يسمعه

أغنية المحيط العظيم

بوداعة وهدهدة، بصرامة وصخب.

غارقة دائماً فى الألغاز.

أغنية أزلية أبدية.

ملحوظة للمؤلفة

رحلة كتابة "أغنية البحر" كانت مثيرة، ومليئة بالمعلومات المدهشة عند كل منعطف. وأصبح واضحاً لى أن عالم الفلكلور والأسطورة مفعم بالحيوية إلى حد بعيد. قصة عن دموع حورية بحر سمعتها فى ١٩٧٦ خلال إقامتى فى جزر الهبرديز الإسكتلندية حُكيت لى بعد نحو عشرين سنة على جزيرة بريير، وهى جزيرة صغيرة تقع فى خليج فاندى فى نوفا سكوتيا. ولقد أذهلنى كم هو رائع أن تستطيع حكاية شعبية الانتقال عبر المحيط الأطلنطى من جزيرة تقع فى مكان منعزل إلى جزيرة أخرى لتغتسل على شاطئ جديد.

سمعت فى البداية الكثير من القصص، والأغانى وأنواعا من المأثورات فى هذا الكتاب حول موائد المطبخ فى لونينبورج، فى نوفا سكوتيا. وسمعت المزيد من قباطنة بحر نيوفاوندلاند وأغانى الطهاة. ولقد عززت مواسم الصيف التى قضيتها فى إسكتلندا ورحلاتى فى كل أجزاء نيو إنجلاند تقديرى لثراء وحيوية وشمولية مأثورات البحر التقليدية.

المؤلفة فى سطور:

آن سبنسر

صحافية فى الإذاعة والتلفزيون وكاتبة ولُدت وتربت فى لونينبورج، فى نوفا سكوتيا، موطن أكثر المراكب الشراعية الكندية شهرة، "البلينوز bluenose" وتشبعت منذ طفولتها بالمأثورات الشعبية التقليدية.

وآن سبنسر هى كاتبة سيرة البالغين "وحدى فى البحر: مغامرات يوشع سلوكام" Josua Slocum وهى تعيش مع ابنيها فى تورنتو، لكنها تعود إلى شاطئ البحر كلما استطاعت أن تفعل ذلك.

المترجم فى سطور :

عزت عامر

- نُشر له ديوانان "مدخل إلى الحدائق الطاغورية" و"قوة الحقائق البسيطة"، ومجموعة قصصية "الجانب الآخر من النهر"، وتحت الطبع ديوان "روح الروح".

- حاصل على بكالوريوس هندسة طيران جامعة القاهرة ١٩٦٩ .

- مدير مكتب مجلة "العربى" الكويتية فى القاهرة.

- محرر علمى ومترجم عن الإنجليزية والفرنسية، ينشر فى العديد من المجلات والصحف العربية.

- عمل محرراً لصفحة العلم والتكنولوجيا فى صحيفة "العالم اليوم" المصرية، ومسئولاً عن صفحة يومية وصفحة طبية أسبوعية فى صحيفة "الاقتصادية" السعودية.

- طُبع له فى المشروع القومى للترجمة ترجمات عن الإنجليزية لكتب: "حكايات من السهول الإفريقية" لآن جاتى، و"بلايين وبلايين" لكارل ساجان"، و"يا له من سباق محموم" لفرانسيس كريك، الذى أُعيد نشره فى مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤، و"الانفجار العظيم" لجيمس ليدسى، و"سجون الضوء.. الثقوب السوداء" لكيتى فرجاسون، و"غبار النجوم" لجون جريبين، و"الشفرة الوراثية وكتاب التحولات" لجونسون يان.

- أصدر له المركز القومى للترجمة "ما بعد الواقع الافتراضى" لفيليب ريجو عن الفرنسية، و"قصص الحيوان" لدينيس بيبير عن الإنجليزية.

- شارك فى ترجمة ومراجعة مجلدى جامعة كل المعارف "الكون" و"الحياة" عن الفرنسية، صدر عن المشروع القومى للترجمة.

- له تحت الطبع فى المركز القومى للترجمة: "أينشتاين ضد الصدفة" لفرانسوا دو كلوسيت عن الفرنسية، و"حكايات شعبية إفريقية" لروجر د. أبراهامز، و"كون متميز" لروبرت لافلين.

- نُشر له فى دار إلياس ترجمة "من الحمض النووى إلى القمح المعدل وراثياً" لجون فاندون، و"من قنفذ البحر إلى النعجة دوللى" لسالى مورجان، وضمن الجزء الأول لـ "النظريات العلمية ومكتشفوها" كتابى "كبلر وقوانين الحركة الكوكبية" و"نيوتن وقوانين الحركة الثلاثة".

- نُشر له ستة كتيبات للأطفال تحت عنوان "العلم فى حياتنا" عن المركز القومى لثقافة الطفل فى مصر، وينشر قصصا مصورة ومواد علمية للأطفال فى مجلة "العربى الصغير" الكويتية، ومواد علمية فى مجلة "العربى" الكويتية وملحقها العلمى.

التصحيح اللغوى : أشرف عويس
الإشـــراف الفنـى : حسن كامل